كسالى في الوادي الخصيب

ألبير قصيري



ترجمة محمود قاسم

كسالى في الوادي الخصيب

تأليف
ألبير قصيري

ترجمة
محمود قاسم



كسالى في الوادي الخصيب

Les Fainéants dans la vallée fertile

ألبير قصيري

Albert Cossery

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٦٦٠ ٥

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٩٤٨.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠١٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

مقدمة

> حالة ألبير قصيري غريبة؛ فهو طوال أكثر من خمسين عامًا يُقيم بنفس الغرفة، في نفس الفندق، في باريس لا يغادره، ولا يفكر في أن يبحث لنفسه عن سكن يؤجره، حتى أمه التي جاء بها من مصر لتعيش معه سنوات في نفس الغرفة — وهي امرأة مصرية ولا تتكلم الفرنسية — لم تغادر الفندق مثله.

إنها حالة من الكسل الملحوظ الذي يجب الوقوف عنده أو هو سلوك غير مبرَّر بالمرة؛ فالكاتب حين تسأله عن هذا التصرف لا يردُّ عليك بإجابة شافية وكأنه يتكاسل أن يُجيب على هذا السؤال أو أي سؤال آخر، رغم ما يتمتع به قصيري من حيوية مطلقة، رغم عمره الذي تجاوز الثمانين بعدة أعوام.

الكسل هنا حالة جوانية يمكن معرفة أسبابها عند قراءة روايات الكاتب القليلة، والتوغل في سلوك الكثير من أبطال هذه الروايات.

الكسل إذن هو السمة الرئيسية في روايات قصيري، والغريب أنه كسلٌ رجولي، أي إنه يتعلق فقط بالذكورة؛ ففي رواياته العديدة تجد أن النساء تعمل، أيًّا كان هذا النوع من العمل، بينما الرجال كسالى إلى أقصى حدٍّ ممكن. ففي رواية «شحاذون ومتكابرون» فإنَّ النساء هن اللاتي يعملنَ في بيوت الليل، يجلبنَ المال، ويحرِّكنَ العالم. وفي رواية «منزل الموت الأكيد» فإن كلَّ الرجال يبقون في المنزل الآيل للسقوط، لا يغادرونه، بينما تتجمَّع الزوجات ويخرجنَ من البيت، يصحبهنَّ الأطفال، ويذهبنَ إلى صاحب البيت من أجل مواجهة ساخنة، ويطالبنَه بتصليح البيت. أما الرجال، فإنهم يقبعون في الدار، يفكِّرون فيما يمكن أن يحلَّ عليهم، كلُّ ما يفعلونه هو كتابة عريضة يُرسلونها إلى السلطات المسئولة، ويُقرر أحدُهم تشجيعَ جيرانه على عدم دفع الأجرة؛ وذلك لأن «صاحب البيت بلا أجرة، وبلا بيت لا يكون صاحبَ بيت».

ولعل الرواية الأكثر اهتمامًا بهذه الظاهرة، هي «كسالى في الوادي الخصيب»، ويبدو من تناقض عنوانها موقف الرَّجل تجاه الحياة، وسوف نرى أن الرجال بالفعل هم الأشد كسلًا، لدرجة أن إحدى الشخصيات يمكنها أن تنام لعدة أسابيع، أما النساء فهن مليئات بالنشاط والحيوية، ويمارسنَ أعمالًا تجلب لهن الأموال، مثل الطفلة الخادمة هدى، أو العاهرة إمتثال، أو الخاطبة البدينة الحاجَّة زهرة، فهنَّ عناصر الحركة الوحيدة في هذا المجتمع.

والرجال الذين يعيشون في بيتٍ ريفيٍّ صغير، يكادون أن يموتوا كسلًا، بدايةً من الأب «العجوز حافظ»، ومرورًا بأخيه مصطفى، ثم أبنائه الثلاثة: رفيق وجلال، ثم سراج أصغرهم جميعًا.

والكسل هنا حالةٌ عدوى لدى الجميع، هو نوع من المتعة والفلسفية، ولا يتمثل فقط في أنَّ الجميع يغطُّون في النوم طيلةَ أوقاتهم، ولا يجتمعون إلا مرات قليلة كلَّ أسبوع أثناء لحظات تناوُل الطعام، بل إنهم جميعًا بلا وظائف، ويرتعب أحدُهم بشدة من فكرة العمل، والخروج في ساعات مبكرة مع الآخرين ليعمل، وعلى طريقة تخويف الأطفال بتذكيرهم بشيء ما يُرعبهم كالعسكري، وبائع الجاز، فإن ما يرعب رفيق، كما سنرى، هو أنَّ عشيقته العاهرة، تطلب منه أن يترك منزلَ أبيه ويعمل مثلَ بقية البشر.

وكما سبقت الإشارة، فإذا كان هذا هو عالم الرجال الكسالى، فإنه في المقابل، يتسم عالم النساء بالنشاط والحيوية والعطاء، يبدو ذلك واضحًا في دور «إمتثال» كعاهرة — في الرواية التي بين أيدينا — في إقناع الطلبة الذين يتردَّدون على بيتها، وفي دور الحاجَّة زهرة في تنشيط الرجل كي تدفعَه للزواج وإخراجه من حالة الوهن التي تعتريه، فتعطيه الإحساس بأنه قادر ويمكنه أن يستمر.

أما هدى فهي الشخصية النسائية الرئيسية، وهي لا تكاد تبلغ الثالثة عشرة رغم عدم الإشارة إلى سنِّها في الرواية؛ ففي الفصل الثاني من الرواية نراها هي التي تطبخ، وتنظِّف البيت، وهي العنصر الحيوي الوحيد في الدار، ورغم تعرُّضِها لمضايقات جنسية من رفيق، ورغم إهانات العجوز حافظ لها — لأنها لم تؤدِّ واجبها حين نادى عليها — فإنها هي الترس الوحيد الذي يعمل ويتحرك في وسطِ تروسٍ كسولةٍ يعلوها الصدأ، ولعلها تفعل ذلك من أجلِ حبِّها لسراج.

كما أنها صلة وصل بين رفيق وعشيقته إمتثال، يُرسلها إليها أكثر من مرة، وفي الفصل الثامن تقوم بزيارتها ذات مساء.

وتبدو المرأة هنا تمارس أعمالًا وضيعةً مثلما في أكثر أعمال ألبير قصيري؛ فهي إما عاهرة أو هي مخلوق متمثل دومًا، ولكنها مهما كانت لا تتمتع بكسل الرجال الذي يدفعهم إلى النوم لساعات طويلة، ويعتبرون أن لحظات اليقظة، إما للطعام أو للذهاب إلى الحمام، هي لحظاتٌ ضائعة، ويطرح هذا الأمر السؤال: هل هناك علاقة بين إقامة الكاتب في نفس الغرفة بنفس الفندق طوال نصف قرن وبين كسل شخصياته وعدم إقباله على الشهرة، وأيضًا على أن تُترجَم أعماله إلى لغات أخرى منها اللغة العربية، لغة وطنه؟ من الواضح أن هناك علاقة، كأنَّ قصيري قد سكب كلَّ كسله وفلسفته في ممارستها في أغلب أبطال روايته المنشورة حتى الآن.

محمود قاسم

١

أمسك الطفل نبلتَه وهو يكتم أنفاسه، حملق أمامه، ثم رجع برأسه للخلف، فغر فاه، اكتسى وجهه بهياج غريب، طار الحجرُ مُطلِقًا صفيرًا، ثم اختفى بين فروع شجرة الجميز فطارت الطيورُ دفعةً واحدة وهي تُطلِق زقزقاتِها، لقد خابت الضربة.

وقف سراج ساكنًا فوق منحدرٍ في طرَف حقل الذرة، إنه يراقب الطفل منذ فترة، الطفل في الثانية عشرة من عمره، يتورَّد الدم في وجهه، وعيناه الواسعتان أشبه بزهرة في رأسه، يبدو كطفلٍ ناضج، يرتدي ملابس رثَّة، وكأنه قادم من مكان بعيد، وعلى أكثر من مكان في جسده تبدو آثار المغامرة، بدا سراج مفتونًا بمظهره، وبالوحشية التي تبدو عليه، اكتسَته الدهشة وهو يتابع هذه اللعبة الآلية، من وقتٍ لآخر ينحني ليلتقطَ حجرًا ثم ينتصب كي يُطلقه بنبلتِه، إنه يُطلقه الآن دون أن يصوِّب الضربة تلو الأخرى، لاحظَ سراج أنفاسه القصيرة المتقطعة لا يمكنه أن يمنع نفسه من النظر إليه، يبتسم ببلاهة أمام هذا العنف الذي يبدو، وسط الحقول، أقرب إلى كابوس.

كم من الوقت مرَّ؟ تذكَّر سراج أنه رأى الطفل، ثم تغيَّر كلُّ شيء فجأةً، لا يعرف كيف حدث التغيير، إنه في كل مكان في الجو، كأنه حالة من المعاناة المستنشَقة.

كانت شجرة الجميز تنتصب على مسافة عشر خطوات منه بجوار الممرِّ حيث تُسقط فروعُها الكثيفة ظلالًا ثقيلة، يخترق الممرُّ حقولَ الذرة، حتى الطريق الرئيسي الذي لا يظهر سوى جزء منه، والذي تقع على حافته فيلَّا مطليةٌ باللون الأصفر المدغم بالأخضر معطيًا لونًا أشبهَ بزرقة السماء المكفهرة. أحيانًا يمرُّ أتوبيس بسرعةٍ مثيرًا خلفه ثلةً من الغبار،

وأحيانًا تمرُّ عربة يجرُّها حمار ببطء شديد وتستغرق وقتًا حتى تختفي عن الأنظار، لكن في تلك اللحظة بدَا الطريقُ خاويًا.

كان الطفل يصطاد دائمًا بعنادٍ، يُناضل وقد تصلَّب رأسُه، وكأنه يهدِّد كلَّ العالمين بنبلتِه، وكأن القرية تُثير غضبَه عن بكرة أبيها، يثور فيقذف السباب الذي يتناثر من بين أسنانه التي لا يفتحها، من وقت لآخر يتوقَّف ويرقب الطيور النادرة المختبئة بين فروع شجرة الجميز، ثم يستكمل صيده وقد استبدَّت به طاقة قوية، يبدو كأنه لا يرى شيئًا حوله فينهمك تمامًا في مهمته الشاقة.

أحسَّ سراج بالخوف من البقاء وحدَه في الحقل مع هذا الطفل المتوحش الذي يتسلَّح بنبلتِه، بدأ يحسُّ بقلقٍ حادٍّ كاد أن يُصيبَه بالجنون، ودَّ لو يهرب وأن يُفلتَ من هذا المنظر الذي يُهدِّده بالخطر، ولكنه لم يجرؤ على الحركة، شعر أن جسده يرتجف، وأن حلقَه يختنق بالألم، اعتراه خوفٌ غريب أمسكه من كتفه، شيء لا نهاية له، في كل حركة، وبكل لمحة من الطفل، أحسَّ بألمٍ عنيف يَسْرِي في عنقه منذ وقت لا يعرف مداه، أخفض رأسه وبدأ يعضُّ لسانه وهو يدلِّك كلَّ عضلاته حتى لا يسقطَ مغشيًّا عليه، كأنما الدموع ستفرُّ من عينَيه من البكاء برقةٍ دون أن يمتلك مراجعةَ نفسه.

أدار رأسَه بصعوبة وألقى نظرةً حولَه مليئة باليأس، الحقلُ خاوٍ تمامًا في هذا الريف المصري، وحقول الذرة وقصب السكر، تنبسط الأرض الواسعة التي تبدو وكأنها خالية تمامًا من الحياة. عن بُعد، وعبْر ضباب خفيف، يرى جذوعَ النخيل كأنها رسوماتٌ تتوازن أشبه بمراوحَ ضخمة، وسواقيَ تصبُّ المياه تُشبه الفضة. فجأةً برزَت في الأفق طيور «أبو قردان»، وراحَت تقف قليلًا في السماء، ثم نظر سراج إلى جانبَي الطريق، في أول الأمر لم يرَ شيئًا، ثم شاهد امرأةً متشحةً بالسواد تَسيرُ على مهلٍ، وقد مالَت الجرةُ فوق رأسها، لم يستطِع أن يُميزَها جيدًا، لكنها على الأقل شيءٌ حيٌّ يتحرك في هذا المكان.

كان من الصعب رؤية الشمس التي تختفي خلف السُّحب الكثيفة، إنها شمس الشتاء الخافتة، تلمع لكنها بلا حرارة.

من وقتٍ لآخر، تهبُّ نسمةٌ عبْر الحقول فتهزُّ أفرع نباتات الذرة، فتبدو كأنَّ موجةً عاتية قد ثارَت ... ثم تتلاشى شيئًا فشيئًا، وتعود الأشياء كما كانت مرةً أخرى. نظر سراج إلى الطفل أحسَّ كأنَّ شيئًا يصدمه في صدره وأنَّ ساقَيه تخوران من تحته وكأنهما قطعتان، استكمل الطفل صيدَه وكأنَّ صرعًا يمتلكه، كأنما شيطان يمسُّه في هذا الفراغ، ظلَّ سراج ينظر إليه دون أن يُصدِّق نفسَه، أحسَّ بنعاس يغلبه، لكن كيف ينام أمام هذا المنظر

المثير للقلق؟ في الواقع كان ما يُثير خوفه هو ذلك الغموض الذي يكتشفه، الغموض في عالم متوحِّش، مليء ببشرٍ أثقلهم العمل وأخار قواهم، لم يخدع سراج نفسَه؛ فقد أحس في تصرُّفات الطفل بكل سِمات الإنسانية الضائعة المطاردة، وأنَّ كلَّ عبودية البشر لم يُصِبها مثل هذا المشهد ... هل يؤمن بالقدَر؟ سمِع سراج دقاتِ قلبِه كأنه على أعتاب الجحيم.

لقد سَمِع سراج أنَّ الناس يعملون، حتى لو ظلَّت هذه مجردَ حكايات؛ فهو لا يؤمن أبدًا أنَّ على الإنسان أن يعمل بعيدًا عن هذه المهن الخصبة والعقيمة التي ليست لها أيُّ جاذبية أو قيمة تستبد به رغبة منذ وقت طويل أن يرى أحد هؤلاء البشر الذين يعملون بمشقة بكلتا يدَيهم وهم يُمسكون محاريثَهم، لكن يبدو أنَّ هذا أمرٌ صعب للغاية، إنه لا يعرف أيَّ وسيلة للوصول إليهم، منذ أن بدأ يبحث عن عمل، هو لا يستطيع الوصولَ إليهم، في المنزل تعتبره أسرتُه مجنونًا أو ممسوسًا، عندما يحدِّثهم عن العمل، لم يُصدِّقه أحدهم، ليس لأنهم بُغِتوا بقراره، ولكن لأنه لا يُجيد أيَّ مهنة، لم يعرف سراج إلى مَن يتوجَّه، فكلُّ مَن يعرفهم كذابون وليس لديهم فكرةٌ عن العمل الحقيقي، حتى هؤلاء الذين يمارسون أعمالًا شاقة لم يَظهروا أمامه قط ... يبدو كأنهم اختفَوا في أعمالهم، كأنما رَكِبهم خجلٌ أو خزي، إنه يرغب أن يقترب من الناس في عملهم، ليعرف كيف يبدو العمل.

لكن، هل هذا الطفل المصاب بالصرع عاقل؟ بالتأكيد إنه لا يعرف الطريقَ ولا الوسيلة لو كان العمال يتصرفون مثله، فسوف تصبح الحياة مستحيلة، ألا يوجد أمامه سوى صيد الطيور، ماذا سيغدو أمره لو عمل في مصنع؟ لأن سراج لا يفهم العمل الجاد إلا في الآلات التي تعمل، ولديه فكرة رومانسية عن العمل في مصنع، وهو مشدوهٌ بالأسلوب الرائع الذي يتم فيه إنجازُ عملٍ ما بواسطة آلاف البشر، ومن هذا المنطق لا يبدو له العمل شيئًا مهينًا، إذن فما يفعله هذا الطفل لا يمثِّل أيَّ نوع من المهن ... حاول سراج أن يضع الغلام في إحدى درجات العمالة، لكنه لا يمكن أن يضعَه تحت أي تقسيم، إنه يبذل جهده سدًى، إنه نوع من الناس فاشلٌ وبائس ولم يرَ سراج مثل هذا الطراز من قبل.

تملَّكه خوفٌ مميت، وهو يتساءل كيف ستنتهي الأمور، ألَا يوجد أحد يمكنه أن يوقف هذا الطفل؟ لا يمكنه أن يظلَّ واقفًا هكذا مدةً طويلة، يحسُّ أنَّ أعضاءَه يتملَّكها بردٌ ثقيل، وكأنه سوف يتبول كمضخة، يعاني كأنه سيتقيَّأ، زمَّ أسنانه كي يمنعَ نفسَه من الصراخ، مال برأسه ناحيةَ الأرض، أغلق عينَيه متجهمًا بصعوبة، تثاءب، وتمطَّع بكلتا يدَيه، ثم جلس على المنحدر، أخرج كسرةَ خبز من جيب بنطاله وبدا في قضمها، وتذكَّر أنه لم يأكل شيئًا منذ أن استيقظ.

مرَّ أتوبيس أخضر-أبيض فوق الطريق الرئيسي مخلفًا وراءه جلبةً شديدة. تناثر الضجيج في المكان كلِّه، ثم اختفى شيئًا فشيئًا، رأى سراج الطفلَ يُطلق طويتَه الأخيرة وقد انتابه الإحساس بالخلاص، ماذا سيفعل الآن؟

تردَّد الطفل طويلًا، وقف يلهث وهو يجفِّف العَرق الذي ينسال أسفل عينَيه، رفع طرفَ ملابسه وكأنه يكشف عن ذكورته، ثم بدأ يتسلَّق جذعَ شجرة الجميز كأنما تملَّكه شيطان. فجأةً رأى سراج شيئًا ما يلمع في عينَيه، عَرَقٌ قذرٌ ينسال على وجهه، لقد أفرغ كلَّ غضبه، لم يبقَ أمامه سوى فضولٍ هائجٍ ونَهَمٍ شديد مضطرب. ركَّز كلَّ انتباهِه الآن على قطعة الخبز التي يقضمها سراج الذي أغلق نصفَ عينَيه، كأنه اكتشف عالمًا رائعًا. تقدَّم بضع خطوات قد تسلَّطَت نظراتُه على قطعة الخبز، ووقف وسط الممر وقد باعد بين ساقَيه وفغر فاه.

تحرَّكَت سحابة ضخمة، فظهرَت الشمس بقرصها الأحمر، وغَرِق المكان في ضوءٍ خائرٍ وخافتٍ، كاشفًا عن مساحاتٍ شاسعة، وكأنما كشفت الأرض فجأةً عن آفاقها. ارتعد سراجٌ ورمَشَ بعينَيه؛ فضوء النهار يُضايقه ويُثير أعصابه. نظر إلى الطفل الذي تجاهله واستمر في الْتهامِ طعامه، وأحسَّ كأنه لم يَدُم طويلًا؛ فقد استيقظ مرةً أخرى، وأحسَّ بوجود الطفل وبنظراته المتوحشة. فكَّر فجأةً أن يقوم ويرحل، لكنَّ هذا الموقف لم ينجح إلا في تثبيطه أكثر، وكالعادة فإنه لم يأتِ إلى هذا المكان إلا لرؤية المصنع الذي لا يزال تحت التشييد حتى الآن، هذا المصنع الذي يقع على مسافة مئات الأمتار معزولٌ وسط الحقول، لم يودَّ سراج أن يذهب الآن؛ فهو بالغ التَّعب، لكنه يجد نفسَه أكثرَ شجاعةً من أيِّ وقتٍ مضى. تردَّد، وفكَّر في أن يعود إلى المنزل. عندما تحرَّك الطفل مؤكدًا تواجدَه بمهمة باكية، لم يستطِع أن يتفاداه، فناداه: اسمعْ يا صغير.

وكأنه بهذا النداء ينتقل إلى الواقع، أطلق الطفل العنانَ لساقَيه، وعبَرَ الممرَّ بخُطًى سريعة وهو يجرُّ ملابسه الرثَّة خلفه كأنها أجنحةُ طائر، رآه سراج فجأةً أمامه شخصًا بائسًا يُثير الرثاء وهو يُمسك بنبلتِه بيدٍ ويمدُّ له اليدَ الأخرى: هل تريد قطعة؟

مدَّ الغلام يدَه دون أن يردَّ، ظل محتفظًا بتحدِّيه، وهو يرمق سراج بعينَيه الجاحظتَين.

لقد فقدَ كلَّ ثقته في هذه الحيلة. قسَّم سراج قطعةَ الخبز وأعطاه القطعةَ الكبرى.

– هل نصطاد منذ وقت طويل؟

حشر الغلام اللقمةَ في فمه، وقال وهو يَهُمُّ بالذهاب: أجل، منذ وقت طويل، هل تقدر لي على شيء؟

١

يراه سراج الآن عن قرب وقد اكتسى وجهٌ بلون غريب، وأهداب ثقيلة وجاذبية خفية، أذناه تلتصقان بوجهه، ورأسه تغطيه جروحٌ متناثرة، هناك شقٌّ في ركن من شفته العليا، يَعَض فمه في سخرية مثيرة للرعب، يظهر جسدٌ مرِن تحت أسمالِه وأعضائه المتناسقة، إنه بالفعل نموذج مرعب جاء من عالم اليأس والنضال، فَهِم سراج الآن سببَ الغم الذي يتناثر من حوله.

ليس نتيجةً لمنظرِه البائس ولا لوجهه الإجرامي، لا، فهذا الغمُّ هو رسالة عالم يتألَّم ويعاني وأضاعَ سنينَ حياته ولم يجنِ منها سوى الشحوب وعدم اللاوعي، أشبه بحيوان مسكين مطارَد يبحث له عن مصير وقد كتَّفته الأخطار، لكن أي أخطار؟

هذا هو ما أراد سراج أن يعرفه على وجه التحديد، هذا الغموض الذي يغلِّف قسوةَ حياة البشر.

الْتهمَ الغلام لقمتَه بسرعة غريبة، وقد اعتبر أنَّ هذه وجبته المناسبة، فسأله سراج: إذن، فأنت تصطاد الطيور؟

كفَّ الغلام عن الأكل، وقد اكتسى بشعور عدواني، وقال: أنا لا أتسلَّى، بل أصطادُهم لأبيعَهم، هل تعتقد أنَّ أمامي وقتًا كي أُضيعَه؟

بدَا كأنه شخصية هامة، وهو ينظر إلى سراج بعينَين مليئتَين بالرثاء: آسف، لم أكن أعرف أنك تعمل، من الرائع أن يعمل المرء هنا.

ردَّ الطفل: إنه عملٌ ملعون؛ فلم أستطِع اصطياد طير واحد منذ الصباح، وكأن شيطانًا تسلَّط عليهم.

يبيع الطيور، بالتأكيد أنَّ تجارته أشرف من غيرها، لم يأخذها سراج في حسبانه، لكنها بدَت له شيئًا رائعًا، وأكثرَ أهميةً، هل يسخر الطفل منه؟ لعله يتحداه، فكَّر في محاولاته اللامُجدية وفي قسوة الطفل، فلم يستطِع أن يمنع نفسه من الإعجاب به، ربما أنه نوع العمل الذي ينشده، أراد أن يسأله بضعةَ أسئلة، وأن يعرف تفاصيلَ هذه الصناعة الهامة المليئة بروح المغامرة والمخاطرة، ربما يمكنه أن يمتهن هذه المهنة يومًا لو كانت مربحة، سأله: هل تكسب منها نقودًا كثيرة؟

لم يردَّ الطفل، انتهى من لقمته، وبدا كأنه يعيد مضْغَها ثانيةً، فجأةً بدأ يقفز فوق ساق واحدة، ويدور حول نفسه كأنَّ شيطانًا مسَّه، وكأنَّ هذا التمرين يُغرقه في حالةٍ من الثَّمالة النادرة. لمع وجهه في سعادة واضحة، لم يُعِر سراج انتباهًا، وبدَا كأنَّه نسيه تمامًا.

ظلَّ سراج ينظر إلى الطفل من فوق المنحدر ثم دعك عينَيه حتى يتأكَّد أنَّ غيبوبةً لم تمتلكه، لقد باغتَه تصرُّفُ الطفل ولم يفهم شيئًا من هذا التحوُّل، فانغمس بخياله في واقعٍ

مثير لم يدخله الطفل بغتةً، ينتقل دائمًا من حُلمٍ عبثيٍّ إلى واقعٍ مرعب، لم يستطِع سراج أن يتوصَّل في منظره هذا أنه قادمٌ من عالم مليء بالمتاعب.

بدأ بعض رذاذ المطر يتساقط فيجعل المكانَ أكثرَ حزنًا، تنبَّه سراج من أفكاره عندما سقطَت عليه حبات المطر، هبَّ في جلسته، لكنه ظلَّ قابعًا فوق المنحدر وقد عقد ذراعَيه حول وجنتَيه. توقَّف المطر فجأةً واندلع ضوء البرق، غطَّت السُّحب الشمس، ثم من جديدٍ ظهرَت بين كُتَل سُحُبية ثقيلة أشبهَ بالأطباق، ظلَّ الطفل يدور حول نفسه، وهو يلهث وقد اكتسى بمتعة غريبة، لاحظ سراج أنَّ ساقَه التي في الهواء مربوطة بشاش قذر، خاصة الكعب.

– هل جُرحتَ في قدمك؟ هل أنت أحسن الآن؟

– أجل، أفضل، ولا يهمك، أخبرني ... هل معك خبز آخر؟

– قال سراج: لا، لم يكن معي سوى اللقمة التي اقتسمناها، آسف، ألا تزال جوعانَ؟

قال الطفل: أنا جوعان دائمًا، وماذا ستفعل بعد ذلك؟

– بعد ماذا؟ ماذا تقصد؟

– أقصد، عندما ستجوع.

ردَّ سراج: سأعود إلى المنزل لأتناول غدائي.

– آه، إذن فأنت من الذين لديهم منازل.

ردَّ سراج بسذاجة: أجل فلدينا منزلٌ قريب من هنا، قريب من الطريق الرئيسي.

أحس فجأة بالخجل وكأن الطفل يرمقه باحتقار شديد، ردَّ: أنت تعرف أنه ليس منزلي، إنه منزل أبي، وأنا أسكنه فقط، وأنت، أليس لديك منزل؟

قال الطفل: كان لدينا، لكنه سرقَه مني.

– سرقه منك؟ كيف؟ ومَن سرقه؟

– ولدٌ أجَّرتُ له نصفه، كنَّا نسكنه معًا، وذات ليلة عندما عُدتُ لأنام لم أجد البيت ولا الكوخ.

قال سراج هلِعًا: كوخ؟ أي كوخ؟

قال الطفل: البيت هو كوخ من الخشب، أتعتقد أنني صاحب عمارة؟!

قال سراج معتذرًا: لم أفهم جيدًا.

قال الطفل في أسفٍ: كان كوخًا جميلًا، كان قريبًا من الأسواق، يحميني من البرد، خاصة في المكان المخصَّص لي، كان أفضلَ من شقة، هل تصدِّق ... كم قضينا أوقاتًا طيبةً أنا وهذا الولد، ندخن أعقابَ السجائر، وأحيانًا ندعو أصدقاءنا عندنا.

– وكنتم تجلسون جميعًا فيه، إذن هو كوخٌ كبير.
– لا، كان الآخرون يجلسون بالخارج، أما أنا والغلام فنجلس بالداخل، فهو كوخنا.
– ألم تكن تدعوهم للبقاء معكم؟
– من وقتٍ لآخر، كان أحدهم يجلس في مكانٍ للحظات، لكنه لا يجلس طويلًا، وإلَّا أخرجتُه بالقوة إذا لم يفعل.
– وهل سرق هذا الولد كوخك؟
– أجلْ، إنه لصٌّ وابن كلب، أبحث عنه دائمًا، ألم ترَه هنا؟
– لا، لم أرَه، ثم كيف أعرفه؟
– إنه معروف تمامًا، فأمُّه أكبر عاهرة في الدنيا.

هذه الحكاية جعلَت سراج يفكر قليلًا، وراح يتخيَّل، بفرحةٍ غير بادية، وجودَ هذا الطفل المغامر، فما أشبهه به! إنها ليست فقط المغامَرة التي تُغريه، لكنَّ حالة اليقين التي وراء هذا الوجود الجامح والهائم، كانت هناك حقيقةً واضحة وملموسة يرغب في أن يبلغها، ومنذ أمدٍ طويل فهو يناضل كي ينزعَ نفْسَه من شيءٍ أشبهَ بجُرح مفتوح ينسال الدم منه، أراد أن يحسَّ بمشاعرَ تخريبية، وأن يُواجه أخطارًا مرعِبة، وأن يواصل النضال بكل جسارة الأحياء، لكنَّه كان في نفس الوقت خائفًا بشدَّة من هذا العالَم المجهول الشديد الأذى، والمليء بالمعاناة الدائمة، والنُّذُر المظلِمة التي تدفعه أن يدخل في مغامرةٍ عابرة كهذه؛ فإحساسه بخَوَره يحطِّمه، ويُلقي به دائمًا في عالَم الكسل العريق، حيث نما شخصًا خاملًا في منزل الأسرة، يحوطه أمانٌ أكثرُ عدميةً من الموت؛ فهو لم يبلغ قط هذه الدرجةَ من الحرية، وهذا الاحترام غير المحتمَل من أن يعيش حياته كطفلٍ، أحسَّ أنَّ بينه وبين العالَم الذي يعيش فيه خَواءً لا نهائيًّا يمتلئ بالنوبات السوداء.

عادت الطيور إلى أفرُع شجرة الجميز، تبدو الآن أكثرَ هدوءًا وقد ملأَت الهواء بأصواتها الصداحة الجميلة، ومن وقتٍ لآخر، راح الطفل يتحدَّث من ناحيته، لم يغفر لهم مرارته كصيادٍ خائب، وفكَّر في أن يستأنف تجربته الفاشلة في وقتٍ آخر، إنه يوم ضائع بالنسبة له، وأيضًا هو واحد من أيامه الطويلة التي بحث فيها بلا جدوى عن كيانه، لكنه لم يُبلغه بأي ثَمن، ارتعش تحت ملابسه التي بدَت خفيفة، وكأنَّ كلَّ البؤس لم يتمكَّن بعدُ من طلعته العنيدة، عقَد ذراعَيه بقوة على صدره، ثم راح يقفز بكل فرحة.

أما سراج فقد انسحب في تكاسُل، وحاول أن يقوم، لكنه سقط لتوِّه فوق المنحدر، حاول ثانيةً، فنجح هذه المرة في أن يقف، دعَكَ عينَيه، وقال موجِّهًا كلامَه للطفل: ألَا نتمشَّى قليلًا يا صغيري! يجب أن أذهب إلى المصنع، هل تصحبني؟

– هل هناك مصنع؟

– نعم، إنه مصنعٌ تحت التأسيس، لا أعرف ماذا حدث؛ فقد توقَّف العمل فيه منذ شهور.

قال الطفل: ربما أنَّ صاحبَه قد مات.

قال سراج: لا أعتقد (ثم أضاف بلهجةٍ مريرة)، وإلَّا كانت مصيبةً كبيرة!

– لماذا، هل هو قريبك؟

– لا، ليس قريبي، ولكنني أهتمُّ بالمصنع، إذا جئتَ معي إلى هناك فسوف أشرح لك.
أحسَّ وسطَ آلامه أنه في حاجة إلى وجود شخصٍ ما؛ ففي أعماقه، كان يعرف أنه لن يصل وحدَه إلى المصنع، وأنه سوف ينام بكل تأكيد وهو في الطريق، مثلما حدث له مرارًا من قبل. قال الطفل: لا أستطيع مصاحبتك، يجب أن أستكمل صيدي (وتردَّد قليلًا)، ولكن إذا أعطيتني تعريفةً فسآتي معك؛ فأنا ليس لي منزلٌ آكل فيه، وأنت تفهم!

فتَّش سراج في جيوبه، وجمع بعضَ الفكَّة، وجد من بينها قطعةً بمليمَين، إنها عملة مزيَّفة يحتفظ بها منذ أمد طويل، وتذكَّرها الآن فجأة. قال للطفل وهو يمدُّ يدَه له بالعملة: ليس معي الكثير من النقود الآن، ولكن معي مليمان، هل تكفيك؟

قال الطفل: لن نتساوم، ماشي، هيَّا بنا!

٢

واخترقَا الدرب الذي يغوص عبْر حقول الذرة، راح الطفل يمشي في المقدِّمة وهو يعرج قليلًا، لم يعرف إذا كان هذا سببَ قدمِه الجريحة أم أنه يتصرف كبطل شهيد؛ فمنذ أن أمسك بهذين المليمَين راح يتصرَّف كأنه ثريٌّ مستجَد، وكأنه مصاب بوقارٍ غير محتمل، نزع كوعَ ذرة ثم فصَّص أوراقَ النباتات الجافة، وألقاها فوق الأرض مشمئزًّا، لم يُعِره سراج أيَّ انتباه رغم أنه أحسَّ بوجوده، وأن تصرُّفَه الغريب يمنعه من النوم، يمشي كأنه نائم، بينما الضباب الخانق يخترق وجهه.

منذ قليلٍ اشتدَّ البرد قليلًا، فراح سراج يرتعد مع كل هبَّة ريح، ولم تحتمل «تلفيعته» الصوفية الحمراء الملتفَّة حول الرقبة إلا قليلًا؛ فبدأ يعاني من بعض الألم. ما يؤلمه فعلًا هو حذاؤه؛ فدائمًا عندما يذهب لمراقبة المصنع الذي تحت التأسيس، فإنه يرتدي حذاءَ كرة القدم القديم، آخذًا في حسبانه سنواتِ الدراسة، الذي يُثقل خطواته ويؤلم قدمَيه؛ فليست هناك أيُّ قصة خيالية، يمكنها أن تُصور أهميةَ هذه الأشياء التي تُولِّد داخل مخِّه إحساسًا عميقًا. أراد سراج أن يتأكَّد بنفسه، فهو يتصرف كأنَّ هذا نوعٌ من الحج، وأنَّه ذاهب لحملة خطيرة؛ ففكرة ممارسة شيء لم يُستعمل تُملأ بنوع من الحظوة، وبدون هذه الحظوة، فلن تنتابَه أيُّ شجاعة أن يجرِّب شيئًا، إنه يرتدي هذا الحذاء من الكاوتشوك، كحالة أساسية للتخفيف عن النفس.

فجأةً اتَّسع الدرب، ووجدَا نفسَيهما في أرضٍ مزروعة بالبرسيم حيث يوجد كوخُ فلاح من الطوب اللَّبِن، منكَّسٌ قليلًا، يطلُّ على حدود ترعة قديمة، تعلوها الأعشاب، وعلى مقربة منها توجد بقايا ساقية مهملة ومغطَّاة بالتراب. توقَّف سراج؛ فهو لا يمكنه أن يتقدَّم

أكثر، جلس مسترخيًا عند قمة خط المحراث وغَرِق في دموعه، كما خطَا الطفل أيضًا بضعَ خطوات، ثم استدار، وعاد نحو سراج، وقال له: هيَّا، فليس لديَّ وقت أُضيعه، لقد دفعتَ لي كي أصحبَك فلنُسرع.

قال سراج متوسِّلًا: أنا متعَب، فارحمني.

تساءل الطفل: هل تبكي؟ لماذا؟ هل أنت مريض؟

– لا عليك، فلستُ مريضًا، بل أنا بكل بساطة متعَب، قِف معي دقيقة.

قال الطفل: لا يمكنني الانتظار، كُفَّ عن البكاء، يا نهار أسود! في الواقع هذا المصنع غير موجود.

قال سراج: بشرفي إنه موجود، ستراه قريبًا، لسنا بعيدين عنه الآن.

– ولماذا تريد رؤيةَ هذا المصنع؟

– الآن سأشرح لك، وسترى كم هو مهمٌّ.

فكَّر الطالب مليًّا، تُرَى أيُّ سبب يدفع هذا الشاب النائم للذهاب لرؤية مصنع؟ وبدَا كأنه وجد السبب لتوِّه.

– أخبِرْني: هل تبحث عن كنز؟

قال سراج: لا، ليس عن كنز ... إنه فقط مصنعٌ تحت التأسيس، صدِّقني لا يوجد كنز.

قال الطفل: ولا يهمك، لعلك تراه كالكنز ... والآن قُم! فقد انتظرت بما يكفي، إنه يوم ضائع بالنسبة لي.

قام سراج بصعوبة، ومرَّر أصابعه في شعره، ثم دقَّق في الأفق كأنه يبحث عن مَخرج، تحترق بعض العساليج أعلى سيقان الذرة بعيدًا، وتهرب طيور أبو قردان تحت السُّحُب المنخفضة، تعرَّف سراج على المكان، فوضع يدَه على كتف الطفل واستعدَّ لاستئناف السير.

لم يمشيَا طويلًا، وصلَا عند أطراف قطعة أرض، واستدارَا يسارًا، وعبرَا قناة يابسة، ثم عبرَا تلَّةً صغيرة. قال سراج: ها هو المصنع!

وفي أرضٍ واسعةٍ بور، تبدو كأنها بقعةٌ جرداء، بدَا المصنع الضخم وسط كومةٍ من الرُّكام والمداخن المنهارة، إنها منطقة غريبة وخطرة ومدهشة يحوطها الحطام، يبدو المصنع أقربَ إلى ورشةٍ مدمَّرة، لا يُرى فيها سوى ألواح من الجدران مشيدة حتى منتصفها، بهندسة معمارية تكاد تكون بارزة، ينتشر فيها نبات العليق وحولها بقايا حديد ودبش مغموس في التراب، في ركنٍ من نهاية الحقل، وشاهد أعمدة حديد التسلح وقد غطَّتها طبقةٌ من الزنجرة السميكة.

لا يبدو أيُّ إنسان في الورشة، وتبدو الأعمال كأنها قد توقَّفَت منذ فترة طويلة؛ فمنذ ستة أشهر لم يرَ سراج شخصًا يعمل، ولم يفهم دوافعَ هذا التوقُّف؛ فهو يأتي مرتين أو ثلاثًا أسبوعيًّا.

آملًا أن يرى البنَّائين يستكملون العمل، ولكنه يُصاب دائمًا بنفس الخيبة؛ فقد ظل المصنع متوقفًا في سكونه، يعطي الإحساس بأنه تمثال أو ديكور.

فقدَ الطفل إفراطَه الجنوني، وانتابه الذعر وأصبح فريسةً لخوف شديد بدا كأنه قد نسيَ الكنز، سأل: هل هذا هو المصنع؟

أجاب سراج: نعم، أتساءل لماذا لم ينتهِ العمل به، أريد أن أعمل هناك.

– أيُّ مصنع هو؟

– أعتقد أنه مصنع نسيج، أتمنَّى أن يوظفوني.

– وإذا لم ينتهوا منه؟

قال سراج بيأسٍ: إذن فلن أستطيع العمل، بمعنى أنني لم أعمل قط، لكنني أريد أن أبدأ.

قال الطفل: أنت مجنون، هل تريد أن تعمل في مصنع؟ إنه يومٌ أسود على أمِّك!

– اسمع يا صغير! أريد أن أعمل، أعتقد أنني أستطيع أن أفعل الكثير.

— ماذا تودُّ أن تفعل؟

– لا أعرف بعدُ، يجب على الرجل أن يعمل، ألَا تؤمن بذلك؟

هتف الطفل: أنت لك بيتٌ تأكل فيه، وتريد أن تعمل، يا لَها من فكرة سوداء!

وظلَّا لبعض الوقت لا يتكلمان، ثم سأل الطفل: لماذا لا تبحث عن عملٍ في المدينة، إذا كان لديك ما تعلمه؟ لأنه حسب رأيي، فهذا المصنع شيء مناسب للاستخدام كمراحيض.

قال سراج: لا أستطيع الذهابَ إلى المدينة، فهي بعيدة، أما هذا المصنع، كما ترى، فهو قريب جدًّا من بيتنا، ولن أتعب في الذهاب إليه.

– أنت سريع التعب، هل أنت مريض؟

لم يردَّ سراج، كان موضوع المصنع بمثابة حجَّة، يعلِّق عليها يأسه، لكن في أعماقه يعرف أنَّ بناءَ المصنع لن ينتهيَ أبدًا، وعليه فلن يخاطرَ بممارسةِ أيِّ عمل فيه، وعندما يضع في حسابه هذا الخداع، فإنَّ سراج يودُّه بشكل مرعب، فهو بائس تنتابه تبكيتاتٌ لا تنتهي، وكي يتبرأ منها، فإنه يتساءل إذا لم تكن هذه هي البداية، وعمَّا سيفعل لو شعر بأنه اكتفى؛ فالجرأة تتمثل أنه بهذه الزيارة لرؤية المكان الذي عليه أن يعمل فيه، إنه

مجهود يستحق الاحترامَ والثقة في الذات، ألقى نظرةً أخيرة على المصنع الذي لم ينتهِ بعدُ، وفكَّر بعمقٍ أنه في طريق التقدُّم الاجتماعي، وهنَّأ نفسه من الداخل.

استكملت السماء تحريك سُحُبها الكثيفة بشكلٍ سيِّئ، وتسلَّلَت الكآبة العصبية الخفية في حنايا المنظر، غازيةً الريفَ الذي يدنو منه المساء، وعلى مقرُبة من المصنع الغير متكامل، راح كلبٌ أليف يتجوَّل بين الرُّكام، إنه يتجول في كل مكان بكامل حريته، كأنه فقدَ كلَّ آماله ثم اختفى وراء جدار. انتظر سراج أن يراه يعاود الظهور، ثم استدار نحو الطفل، الذي ثار من جديد، وراح يشدُّ نبلتَه في الهواء دون أن يحدِّد الهدف، ببساطة من أجل متعة الحركة، بدا كأنه غير منشغل بسراج وأنه عاد إلى الصعلكة، وفجأةً، توقَّف، وقد بدَا عليه القلق.

– هل تعرف كم الساعة؟

سعَل سراج، ونظر إليه دون أن يفهم، وقال: الساعة، يا الله! لا أعرف، لا أعرف في الساعة، هل أنت على عُجالة؟

قال الطفل في وقارٍ مصطنَع: كلُّ الأغنياء يملكون ساعات، وهناك الكثير من الأغنياء في المدينة لديهم ساعات ذهبية، لقد رأيتُهم.

قال سراج: آملُ يومًا، وأنت أيضًا، أن تكون معي ساعة ذهبية.

هتف الطفل: أنا، مستحيل! إلا إذا سرقتُها.

حسنًا! سوف تسرقها.

وفي طريق العودة، انغلق الطفل في صمت كئيب، لم يَعُد يعرُج، وقد بدَت عليه العزة والتيقظ والتنبُّه، بدا كأنه قد وعَى أن ليس لديه شيء يقوله لصاحبه، فهو مستعدٌّ أن يتركه لتوِّه، فهناك مغامراتٌ أخرى تُعلن عن نفسها.

توقَّفا عندما وصلَا إلى الطريق الرئيسي، أخرج سراج يدَيه من جيوب بنطاله، وأبقى ذراعَيه متأرجحَتين وهو لا يعرف كيف ينفصل عن الطفل، تذكَّر أنه لا يعرف اسمه، سأله: ما اسمك؟

ردَّ الطفل: اسمي عنتر.

أطلق هذا الاسم كأنه نوعٌ من التحدي.

أحسَّ سراج بخيبةِ أمل؛ فهذا الاسم (عنتر) يبدو له غيرَ ملائم وغريبًا جدًّا بالنسبة للذكرى التي يريد أن يحفظها للطفل. سأل أيضًا: أخبِرني، هل لك اسم آخر؟

صاح الطفل مندهشًا: اسمٌ آخر لماذا! ألَا يعجبك؟

احتار سراج، ولم يعرف كيف يردُّ.

– أريد أن أعرف إن كان لك اسمٌ آخر، بمعنى اسم أكثر رقة، مثلًا، الاسم الذي تناديك به أمُّك وهي تُدلِّلك.

صاح الطفل: يا إلهي! أنت مجنون! هل لديَّ خيشوم كي أُدلل! أرى أنك لا تفهم شيئًا، لقد ضيَّعت وقتي، السلام عليكم.

– لا تغضب، لم أشأ أن أسبِّب لك ألمًا، صدِّقني، إذا مررتَ ثانيةً من هنا فلا تنسَ أن تأتيَ لتراني، فمنزلنا قريب من الطريق، على يسارك، اسمي سراج.

وبينما يتكلم، انطلق الطفل بعيدًا، وما إن رحل الطفل، حتى أحسَّ سراج بالوحدة، ظلَّ للحظات عند حافة الطريق مشوَّش الفكر، ثم استكمل طريقه نحو المنزل.

إنه طريق واسع، مسفلت، تحفُّه الأشجار القديمة، مشى سراج فوق الممر، وقد تقوَّس ظهره، وثبَّت عينَيه نحو الأرض، فكَّر في التفاصيل المثيرة للقائه بالطفل الذي رحل لتوِّه، أسلوبه الغريب، وحماسه الحي؛ فمنذ رحيله، وسراج يحسُّ بالفراغ، لم يعرفه قط من قبل، مرَّت سيارة على مسافةِ سنتيمترات منه، وقد انفتحت ماسورة العادم فانطلقت منها رائحة بنزين يحترق في الهواء، دخل خياشيمه، وخنقه فسعَل، امتلأت العينان بالدموع، فتوقَّف جانبًا، وانتظر لحظةً حتى توقَّف السُّعال ثم عاود المسيرَ وهفت عليه ذكرى الطفل، وفكَّر أن يترك كلَّ شيء كي يلحق به فتوقَّف، نظر خلفه آملًا أن يراه، ولكن كان الطريق خاليًا في الأفق.

وبعد لحظاتٍ ظهرَت فيلَّا محاطة بسور حديدي، مغلقة النوافذ تبدو على جانب الطريق؛ فهو كإنسان ميسور يعيش هنا دائمًا، تساءل سراج وهو يشعر بالفخر لانسحابِه إذا كان يمكنه أن يندسَّ من بين هذه الجدران، وأن يهرُب من حياته البائسة مثل الفئران في أعماق جحورها، أي حقارة ساخرة! إنه هكذا في كل مكان حوله، ألن يخرج أبدًا من هذا الخداع الضخم، من هذا الوحل الراكد؟ يجب أن يكون هناك شيء في عالمٍ يسكنه الأحياء، وليس مجرد جثة عفنة، ولكن أين هذا العالم؟

على يمينه، هناك الآن ثلةٌ كبيرة من المنازل، والعمارات ذات الثلاثة أو الأربعة طوابق تبدو بسيطة، بعضها قديم للغاية، وقد أُزيلَت قشرتها، يسكنها برجوازيون صِغار، وموظفون على المعاش هربوا من صخب المدينة للبقاء عند هذا الطريق في ضاحيةٍ بشعة، وعلى مسافة بعيدة تملأ المنازل الحقول من كل جانب بالطريق، تبدو كأنها مدينة تكوَّنت عبْر المحاريث، والحارات الضيقة، حارات من الطوب اللَّبِن، والأرض مستوية مليئة

بالقاذورات تحفُّها خطوطٌ متعددة الألوان، تتجفَّف في بعض النوافذ، تبدو البُقَع الواضحة التي تبرز قليلًا هذه الأكوام الباهتة، ويظهر أحيانًا قليلٌ من الأشخاص كأنهم هاربون أو كأنهم يُعطون للموت.

مال سراج نحو الجانب الأيمن من الطريق، فوق ارتفاع عشرة أمتار توجد مجموعة من المباني المنخفضة، بلا طوابق، إنها حوانيتُ تجارية، توقَّف سراج أمام الحانوت الأول: السلام عليك يا أبو زيد.

رفع الرجل الجالس أمام حانوته رأسَه، هزَّه دون أن يُحرِّكه، إنه يُجيب داخليًّا على سلام الشاب بلا مبالاة بادية، إنه شخص شديد الكسل ذو عينَين مدمعتَين، وفمٍ أَهْتم يسيل منه اللعاب، ذو لحية كثَّة، ومصبوغة، يبدو نائم الوجه، يضع على رأسه طاقيةً من الصوف المجدول، وشاله الأسمر يغطي كلَّ جسده تقريبًا، وبكل هدوء أسند ظهرَه على جدران الحانوت، إنه يتدفأ على ضوء أشعة شمس متردِّدة خافتة، وأمامه سِلال مليئة بالحرنكش، وبأخشاب الشيش، ولبٌّ يُطبخ فوق قِمَطر منخفض، وفي الداخل يبدو الحانوت خاويًا. سأل سراج: هل التجارة على ما يُرام؟

أجاب أبو زيد: الله يلعن التجارة ومَن اخترعها، إنها بؤس على العواجيز مثلي، لا أستطيع أن أدفع أجرةَ هذا المحل الملعون.

– إنه محلٌّ أكبر من أن تبيع فيه الحرنكش يا عم أبو زيد! لقد أخبرتك أن بيع الحرنكش ليس مهنةً لرجل.

ردَّ أبو زيد: ماذا يمكن للرجل أن يفعل، يا بني؟ ألم تفكِّر لي في فكرة، أنا بين يدَيك.

قال سراج: ما زلتُ أبحث.

واقترب من إحدى السلال، أمسك حَفنةً من خشب الشيش، ودفعها بنهمٍ في فمه، وراح يمضغها طويلًا، وقد أربكَته فكرة أن يُصيبَه مرضٌ غريب، في الحقيقة لم يكن يعرف الشكل المناسب الذي يمكن أن يكون عليه هذا الحانوت، إنه ليس من نوع العمل الذي يرغب في الاقتراب منه، إنه بمثابة أحد المظاهر اللئيمة لكسلٍ أبدي، ألقى أبو زيد نظرةً واهنة نحوه مليئة بالغباء المطلق، وبصيرته العجيبة؛ فمنذ فترة طويلة تحدَّث إلى الشاب عن اقتراحٍ بتجارة هي بالنسبة لمحله كبيرةٌ جدًّا على بيع الحرنكش، وبرهن له عن مشاعرِ مودةٍ تختلط فيها غريزةُ الفضول بعاطفة النوم، أما بالنسبة لسراج فهو يجيء دائمًا كي يُثرثر مع التاجر، وهو يجب أن يسمعه يحكي القصص عن شتى المشاكل الزوجية؛ فأبو زيد يعرف شهرةَ أسرة الشاب، ويكنُّ احترامًا كبيرًا للسلوكيات الغريبة التي تتسم بها،

ويراها أمورًا متلائمة تمامًا، فهو نفسه يميل بقوة إلى أنماط الفتور العام، وأيضًا لديه فكرة عن تجارةٍ تُناسب تفكير فرد من أسرة كسولة، ولا تستطيع على أي حال أن تحتمل المخاطرة ولا المزيد من التعب، انتظرَ أبو زيد، والسلام يسكن روحه، أن يمنحَه الشاب نصائحه الكريمة.

دامت لحظةٌ صمت، وبين اللحظة والأخرى، يمدُّ أبو زيد يدَه أسفل ملابسه ويُمسك ببرغوث، ثم يفعصه بين أظافره، وهو يُغلق عينَيه راضيًا، بدا كأنه يمارس شعائرَ خاصة، وهو يتحرك ببطء محسوب، وبعد أن تخلَّص من بعض هذه الأمور غير المرغوبة سأل فجأةً، وقد استعاد منظره السعيد: أخبِرْني يا بُني، هل استودعك أخوك جلال قبل أن ينام؟

– ولماذا يستودعني؟ أنت تمزح يا رجل.

أكمل أبو زيد: يبدو أنه ينام شهرًا دون أن يستيقظ، أليس كذلك يا صغيري؟

وزيَّنَت فمَه الأهتم ابتسامةُ إعجاب، كأنها ندبة. قال سراج: إنها حكايات مرعبة، كيف تقول ذلك يا رجل، هل تصدِّق مثل هذه الغباءات، صحيح أنَّ أخي جلال ينام كثيرًا، قد ينام أحيانًا يومًا بأكمله، أما بالنسبة للنوم لشهر كامل فلا أحدَ في الدنيا يمكنه أن يفعل ذلك، صدِّقني إنها حكايات غير صحيحة.

قال أبو زيد، وقد انتابه بعض الخيبة: الأشرار كثيرون، إنهم يردِّدون الكثيرَ من هذه الأشياء.

أحسَّ سراج بكثيرٍ من الخزي؛ فهو لا يذكر أنه سمِع قط مثل هذه الحكاية عن أخيه، صحيح أنَّ جلال قد ضرب كلَّ الأرقام القياسية في النوم، وأنَّه قادر على أكثرَ من هذا، فهو لا يستيقظ إلا كي يأكل أو ليذهب إلى دورة المياه، ولكن اتهامه بالنوم شهرًا كاملًا فيه بالتأكيد مبالغة، لم يتساءل سراج إذا كان كلام الناس قد أدخله أيضًا في هذه الشائعة المَرضية، إنه يعاني من تكبُّده لخمولٍ ثقيلٍ يربطه بكل أفراد أسرته، لكنَّ شبابه كثيرًا ما يُنقذه، ولكن إلى متى يدوم هذا؟ لا يوجد عملٌ يمكن أن يُخرجه من هذا الوسط، إنه مستبعدٌ جدًّا ولا يجرؤ أن يفكِّر فيه.

وإلى جواره، في محل مبيض نحاس، يتلوَّى مبيض فوق حَلَّة صدئة، بينما يساعده صبيٌّ صغير نافخًا بأنفاسه اللاهثة في النيران ويحلِّق بعض ذباب الشتاء في صمت، إنها قليلة ولكنها منزعجة، هشَّها أبو زيد بيده بحركةٍ محدودة غير مؤثرة، هناك خادمة تتسوق وهي تتبادل بعض العبارات المحتدِمة مع بائع خضراوات مسموح له أن يكيل له

بعضَ عبارات المديح، يرنُّ صوته وسط الطريق كأنه هيستريا لا حدود لها، وكأنه يريد أن يغتصبَها أو أن ينزع عنها عينَيها، هزَّ أبو زيد رأسه أمام هذا العرض من الحشائش الإنسانية واستغرق في أفكاره التافهة.

لقد عثر على فكرةٍ يعتقدها عبقرية بالنسبة لتجارته: بالنسبة للمحل يا بُني، ما رأيك لو بِعت فجلًا؟ فالفجل جميل.

ردَّ سراج: لا مانع، ولكن ليس هذا ما يناسبك، أنت لا تفكر أن تملأ هذا الحانوت بالفجل، سيكون أمرًا غريبًا.

قال أبو زيد: الغريب أن أراه خاليًا مثلما هو الآن، صدِّقني إنه يُخيفني.

– اصبر بضعة أيام، أعدك أن أهتمَّ بالأمر، أتعرف يا أبو زيد، إنني الآن أُمارس بعض الأمور التافهة، وسوف تتحسَّن الأمور، سوف أجد فكرةً مدهشة لتجارتك.

– ليحفظك الله يا بُني، عليك فقط أن تُسرع، لا تحاول أن تجد لي أفكارًا غريبة أو متعبة؛ فأنا رجل عجوز، ولا أستطيع أن أسمح لنفسي بأعمال خارقة، فمثلما ترى، فإنَّ قواي تخور يومًا وراء يوم، فأنا أثق بك، وليُعِنْك الله.

تابعت متاعب أبو زيد من مأساة عائلية لم يتكلم قط عنها إلى الشاب، دفعَته شهامته أن يتكتَّمها في صمت؛ فأبو زيد ضحية لحماةٍ شرسة يملؤها الطموح، تُعامله طيلةَ النهار كعجوز خائب، وأنه تاجر فاشل وعاجز؛ ولذا تجعل حياته صعبة، وتحثُّ ابنتها على التمرُّد، لدرجةِ أنَّ أبو زيد وصل إلى درجةِ أن راح يتسول مداعبات زوجته، وأيضًا أن يهرب من تبكيت هذه الحماة الغاضبة. وبعد بضعة أشهر، قبع في ركن من الشارع حيث يعرض بضاعته كي يؤجر هذا المحل الذي يجعله تاجرًا بلا تجارة، وها هو يجد نفسَه الآن واقعًا في مطبٍّ، إنه يحاول أن يخفِّف، قدْر الإمكان، من الشر الذي يهدِّده.

مرَّ أتوبيس، ثم توقَّف في المحطة القريبة، نزل بعض الرجال، الذين هرولوا بكل سرعة نحو مساكنهم، إنهم عائدون بلا شك من أعمالهم، ولكن أي نوع من العمل؟ تطلَّع إليهم سراج بنوعٍ من الازدراء، لا يبدو عليهم أنهم سعداء، بل حزانَى، هم أيضًا يجب أن يناموا في مكاتبهم المرتَّبة في بعض الوزارات؛ ولأن هذا يُزعجهم بشكلٍ خاص، فعليهم أن يناموا في بيوتهم، يجب أن يحلَّ أحدٌ مكانَهم كي يناموا في أي مكان، وأن يعطوا هذا الإحساس أنهم أنجزوا أمورًا كبرى؛ فسراج يُكنُّ لهم احترامًا كبيرًا، وهم يختفون جميعًا في كل الأبواب الكبرى، استأنف الأتوبيس مسارَه منفثًا وراءه كمًّا من الدخان الأزرق.

راح أبو زيد يُجفِّف لحيته بطرَف شاله، ثم وضع قليلًا من الحرنكش في السِّلال، وسأل بكثير من الاهتمام: لماذا تنزعج يا بُني؟ هل أنت مريض والعياذ بالله؟

ردَّ سراج: لست مريضًا، أنا على ما يرام، السلام عليكم.

تُرى كيف سيردُّ عليه لو كان مريضًا؟ لقد سأله الطفل نفس السؤال، هل يبدو عليه هذا؟ سار للحظة، ثم استدار يمينًا، ودخل حارةً ضيقة من الطوب اللَّبِن، وعلى بُعْد أمتار، توقَّف أمام السور الحديدي لمنزله، إنها فيلَّا صغيرة، تبدو بسيطة، مكوَّنة من دورٍ أرضي، وطابق علوي، وحديقة صغيرة تفصلها عن الحارة حيث تتكاثر الأوساخ، توقَّف سراج وقد أولَى ظهرَه للفيلَّا، إنه لا يجرؤ أن يرجع إلى بيته فهو يتحيَّن اللحظة التي لا يعود فيها إلى أسرته؛ فقد عادت الشمس للظهور من بين السُّحُب، إنها تبعث دفئَها منذ وقت طويل، أحسَّ سراج بالدفء، ونسيَ متاعبه وغَرِق في حُلم طويل.

٣

وقفت هدى أمام حوض المطبخ وراحَت تغسل الأطباق وهي تقضم لسانها بين أسنانها، أسندَت كوعها فوق طرَف الحوض، وبحركاتٍ محدَّدة تمكَّنَت من الانتهاء من أعمال المنزل بمهارة، تدخل الآن أشعةُ الشمس العريضة من النافذة وتفرش الأرضيةَ ببقعة مضيئة، فالمطبخ هو المكان الوحيد النظيف في المنزل، إنه عالمها، ولا يستطيع أحدٌ أن يدخله، فيمكن لهدى أن تنظِّفه في أوقات فراغها دون أن تحدث الإزعاجات المألوفة، أما في الغرف الأخرى فإنَّ أعمال البيت تتم عن طريق المصادفة حيث تتطلب الكثير من الصبر والسلوان، فهم دائمًا نيام ولا يحبون أن يرَوها تحوم حولهم؛ لذا فهدى تستخدم كافة أنواع الحِيَل كي يسود هذا النوع من الهدوء في كل أنحاء البيت.

ورغم الضجَّة الصاخبة لوابور الجاز، فإنها سمِعَت صوتَ رفيق الحاد، قادمًا من صالة الطعام القريبة معلنًا عن نفاد صبره في صحبة العم مصطفى، توقَّفت هدى لحظة، وراحَت تُنصت؛ فهي تخشى أن يكون ذلك بسببها، إنها نفس الحكاية دائمًا؛ فهي تتأخر دومًا في إعداد الغداء، في الحقيقة فهي ليست غلطتها، حيث إنَّ عادات المنزل تمنعها أن تأتيَ مبكرًا إلى الدار، وخاصةً أنَّ جلال يمنعها من ذلك؛ فمجرَّد وجود شخص واحد مستيقظ في المنزل يمنعه من النوم؛ لذا فهو لا يريد أن يراها أبدًا، إنه ينتبه عند أقل تغيير في الجو إذا مرَّ أحدٌ قريبًا منه.

فحساسيته شديدة، ويبدو أشبه بالهوائي الذي يُنذره أقل نفس بين هذه الأسرة الغريبة، ولكنه يظهر عنيدًا فيما يتعلَّق بموضوع النوم، فإنَّ ردود أفعاله تظل دومًا بلا حدود، لاهثة في الفراغ، حتى الدعايات التي يسمح لها بإطلاقها فهي تتسم بأنها غير

عدوانية، جبانة، وذات وتيرة واحدة مرعبة، في هذا الشأن، فإنها لا تزعجه كثيرًا، فهي تتمكن دائمًا من الهرب من قُبلاته المقتضبة دون أقل قدْر من الخسارة.

سارت على أطراف قدمَيها، أغلقَت الحنفية ثم فتحَتها، ثم دفعَت تيارَ الماء نحو الأطباق المغطَّاة برغاوي الصابون، وما لبثَت أن بدَت نظيفةً وناعمة، نظرَت إليها هدى بإعجاب، انتابَتها مشاعرُ طفولية وهي ترى يدَيها تُخرج أشياءَ رائعة، إنها إحدى المرات النادرة التي تحسُّ بها في هذه الحياة البائسة، ولكن فجأةً اكفهرَّ وجهها؛ فقد تذكَّرت أنها لم ترَ سراج هذا الصباح، فقد بحثت عنه دون جدوى في حجرته، وتساءلت أين يمكنه أن يكون، لقد خرج بالتأكيد في ساعةٍ مبكرة، ولكن عمَّ يبحث في الخارج؟ إنه الوحيد الذي يتصرَّف على هذا المنوال من بين أحياءِ هذا المنزل الذي يسيطر عليهم النوم؛ فهدى ترى أنه ليس مثل الآخرين؛ ولذا فهي تخاف عليه من كافة أنواع المخاطر. إنها لا تعرف أبدًا ما يمكن أن يحدث لغلامٍ مثله يعرِّض نفسه لكل أخطار الشارع، بين الناس والأشياء المشئومة، تخيَّلته مدهوسًا تحت سيارة، أو نائمًا في أعماق حقل، دون أن يدافع عن نفسِه من وخزات العقارب، ظلَّت قلقةً للحظة تفكِّر وهي تضع لسانها بين أسنانها وتغسل آخرَ طبق بين يدَيها المنسابتَين.

وانتبهَت إلى نفسِها وفكَّرَت بقلقٍ في الغداء المتأخر، وكي تستكمل متاعبها من هذا العدس الذي لم ينضَج بعدُ، تركَت هدى الحوض، ورفعَت غطاءَ الإناء الذي بأعلى الموقد، وتذوَّقَت بطرَف لسانها وبكل ريبة، العدسَ الذي يُطلق بخاره، لقد استوى ولكن ينقصه الملح، أمسكت بوعاء وخفقت فيه حَفنة من الملح، ثم رمَتها في الإناء الذي غطَّته.

الآن عليها أن تجد سراج كي تُخبرَه أنَّ الغداء جاهز، ثم راحت لتوقِظَ جلال النائم كعادته، ويدسُّ رأسه تحت اللحاف؛ فالعجوز حافظ يأكل وحدَه في الغرفة التي تقع بالطابق العلوي، وهو شخصٌ لا ينزعج أبدًا ويعيش على المعاش في عالمه المجرَّد، خطر لهدى أن تصعد له في غرفته باعتبارها مسئولة عن كل شيء، ومشغولة بهم، وكأنهم أطفال مرضى.

جفَّفت الأطباق ورتَّبتها فوق بعضها وأمسكَتها كي تتوجَّه إلى صالة الطعام، في هذه اللحظة، أدارَت رأسها نحو النافذة، ورأَت سراج واقفًا في الحارة، موليًا ظهرَه نحو المنزل، خفق قلبُها في صدرها، ودَّت لو نادَته، لكنها ظلَّت غيرَ قادرةٍ على النطقِ بكلمةٍ مذهولةً بسلوك الغلام المبهَم. وقف سراج يمينًا، وقد وضع يدَيه في جيوبه ودفع رأسه إلى الخلف، ورفع وجهه نحو أشعة الشمس، بدا كأنه يتأمَّل شيئًا ذا أهمية قصوى في السماء لم تستطِع

هدى أن ترى وجهه وقد اختفى أكثرَ، ماذا يمكنه أن يتأمَّل وهو ساكن هكذا كالتمثال؟ وضعَت هدى صفَّ الأطباق فوق المائدة، واقترَبت بهدوء من النافذة.

لا يزال سراج يشعر بمتعةٍ، أحسَّ بنفسه ضائعًا تمامًا داخل تأمُّله، رفعَت هدى رأسها، ونظرَت إلى المنزل المقابل، ثم نحو السماء، حيث تتحرك سُحُب خفيفة تنسلُّ في مهربها، لا يوجد شيء غريب يمكن أن يشدَّ انتباهَه، بلا شك فإنَّ سراج لا ينظر إلى أمرٍ محدَّد، ربما أنَّ عينَيه مغلقتان، يا لَه من غلام غريب! يمكن أن يبقى هكذا للأبد. انتظرت هدى طويلًا آملةً أن تراه يتحرك، ثم قرَّرت أن تفتح النافذة.

سراج ... هيَّا إلى الغداء.

مرَّت بضعُ ثوانٍ قبل أن يُدير الغلام رأسه، كشف عن تكشيرة غضبٍ عندما رأى هدى، ثم ابتسم في حزن. فتحَت له هدى باب الحديقة الحديدي، وجرَت لتُمسك صفَّ الأطباق، وتوجَّهت نحو صالة الطعام، سأل رفيق: يا بنت الكلب! هل الغداء جاهز؟

ردَّت هدى: إنه جاهز، يمكنك أن تجلس أمام النافذة.

– بسرعة، يا بنت المومس.

تقع صالة الطعام في الدور الأرضي، إنها غرفة كبيرة مبلَّطة ببلاط أبيض وأسود مفروشة بأثاث قديم مسوَّس، وما عدا المائدة، والمقاعد من حولها، لا يوجد سوى بوفيهٍ عتيق وأريكة مغطَّاة بأكياس الملاءات البيضاء الضاربة في الاصفرار، في قذارة منفرة هناك حصيرة قديمة محدَّدة الأبعاد، تغطي جزءًا من البلاط أسفل المائدة، أما الجدران فعارية ومندَّاة، مثل كل غرف المنزل تفوح من صالة الطعام رائحةٌ كريهة، لأنها مقفولة، تبدو كأنها قبو أو نفقٌ، وعلى أحدِ الجدران تتصدر، في إطارٍ ذهبي، صورةٌ ضخمة للعجوز حافظ، تعلوها الألوان والأتربة وقد غطَّت مخلفاتُ الذباب زجاجَ الإطار تمامًا، ويبدو العجوز حافظ بداخلها أشبهَ بجثةٍ مرعبة في صورته المرسومة، العجوز حافظ الذي لا يغادر أبدًا غرفتَه، يجد أنَّ أنسب وسيلة هي حضور الواجبات مع أبنائه، ولكنَّ أحدًا لم ينتبه إليه؛ فهو مصابٌ بالأنيميا في إطاره الذهبي البالغ القِدَم والذي يكشف كافة التناقضات.

كان رفيق ممدًّا فوق الأريكة، يرتدي بيجامة مخطَّطة، وقدماه في قبقاب، لقد أدار لتوِّه مع العم مصطفى حديثًا بالغَ الإثارة، كان أثناءه مدارًا للسخرية، إنه مسترخٍ الآن، يتكتم رغبةً لئيمة أن يرى الحسرةَ تلاحق عمَّه، هذا الذي يجلس أمام المائدة يشغَل مكانه في صمتٍ ويقرقش قطعة من الخبز منتظرًا الغداء، ويلتزم هدوءًا رصينًا، رغم أنه يهتز

بعنف من الداخل، لقد جرحَته سخريةُ رفيق طويلًا في كرامته، وحاول أن يكون صافيًا حتى لا يجرحَه أحد.

وضعَت هدى الأطباق فوق المائدة، واستعدَّت للعودة إلى المطبخ، للحظةٍ راح رفيق يرمقها بنظرة عدوانية، وما إن اقتربَت منه حتى داس على طرَف فستانها، وسألها بصوتٍ خفيض: أخبريني، هل رأيتِها؟

ردَّت هدى: نعم، رأيتُها.

لمع بريقُ أملٍ في عينَي رفيق، وأصبح صوته عميقًا جياشًا: وماذا قالت؟

– قالت إنها لا تريد أن تراك.

– بنت الكلب، هذا ليس صحيحًا.

حاولت هدى أن تتخلَّص منه، ولكن رفيق داس أكثرَ على فستانها، إنها تخشاه أكثرَ من الآخرين، بسبب هذا البريق الشهواني الذي يلمع دائمًا في عينَيه، بدا كأنَّ صَرْعًا أصابه، دافعَت عن نفسها: إنها ليست غلطتي؛ فلا أستطيع أن أفعل لها شيئًا، لقد أخبرتني أنها لا تريد أن تراك.

قال رفيق: مستحيل، مستحيل أن تنساني.

قالت هدى: لن تنساك، فقط لا تريد أن تراك.

– مومس، وأنتِ أيضًا مومس.

توسَّلت هدى: دعني.

ترك رفيق الفستان، واستعاد مكانه على الأريكة، وعادت هدى إلى المطبخ.

وأثناء هذا اللقاء الهامس، راح العمُّ مصطفى يتثاءب، وقد ركَّز بصره عند نقطةٍ غير مرئية من الغرفة، لقد قادَته مرارةُ أفكاره رغمًا عنه إلى عالمٍ غيبي وهو مرتدٍ ملابسَ نومه وسُتْرةً من القماش الكستنائي، وقد علَّق طربوشه على رأسه خشيةَ البرد. هذا المظهر يعطي للعم مصطفى إحساسًا بأنَّ هناك زائرًا في دارٍ، فهو لا يتوقَّف عن استعراض كرامته مما يتعبه كثيرًا، إنه يحفظ كرامته بين الأطفال النيامِ العديمي التربية، لكن كل هذا تهاوى تمامًا، لقد فعل العم مصطفى الكثيرَ من أجل إنقاذ — في الوضع الحالي — ما تبقَّى من هذا الاحترام المقدَّس الذي كان ركنًا أساسيًّا من وجوده القديم، ومن وقتٍ لآخر يُطلق تنهيدةَ دهشة، تبدو كأنها صرخاتُ عذاب تخرج من الأعماق.

قال رفيق فجأةً: ها هو عاملنا الكبير.

وما لبث سراج أن دلف من صالة الطعام، كان قد خلع حذاءه في غرفته، وراح يمشي الآن في خفة، بخطًى مرتبكة، وقد بدا عليه التعب، كأنه لم ينَم منذ أيام عديدة، راح يأخذ

مكانه أمام المائدة متباطئًا، فهذه النزهة النهارية قد أنهكَت قواه، وهو الآن سعيد أن يجد نفسه بين أسرته؛ ففي كل مرة يعدو من تَجواله عبْر الحقل، يحسُّ أنه أفلت من مصيرٍ محتوم، ثم يستعيد رغبتَه في الصعلكة، ويبدأ في مقت هذا الجو الغامض والنوم الذي يخنقه، في هذه اللحظة ابتسم في سعادة، وقال: صباح الخير يا عمي.

– صباح الخير يا بُني.

قال رفيق: حسنًا، أيُّ أخبار طيبة جلبتها لنا من الخارج؟

ردَّ سراج: لم أرَ شيئًا مهمًّا فقط تنزَّهت في القرية.

– بشرفي، أنت تبدو مراهقًا، وأين تصرمحت أيضًا؟

قال سراج: هذا لا يخصُّك، أنا حرٌّ أن أذهب إلى حيث أشاء.

ضحِك رفيق ساخرًا: تتنزَّه، ها أنت تتنزَّه الآن، أعتقد أنك كنت تبحث عن عمل؟

– معذرة، فأنا أراك خائبًا هذه المرة أيضًا.

قال سراج: أخذلك ربنا.

قال العم مصطفى: دعِ الغلام في حاله.

ردَّ رفيق: يا عم مصطفى، أنت الذي عشتَ طويلًا في المدينة، قُل لنا من فضلك، كيف يتصرَّف الذين يعملون؟

قال العمُّ: لا أعرف عمَّ تتكلم، ماذا تعني بكلماتك هذه؟

ألحَّ رفيق: إنه سؤال يتعلق فقط بسراج، يجب أن يُوفَّق هذا الغلام، فأنا أنتظر بصبرٍ نافدٍ اليومَ الذي سيأتي فيه للبيت بالنقود، لأنني يا عزيزي سراج، أتمنَّى أن أرى قدراتِك وأنت تكسب الكثيرَ من المال.

اعتاد سراج على هذه السخرية المقززة؛ ولذا لم يردَّ؛ فالعم مصطفى يترك نفسَه دومًا فريسةً لمزاج ابن أخيه المنحرف، أما هو فلا ينغمس في ذلك تمامًا، رغم أنه يعيش منذ ثلاثة أعوام في صحبتهم وقد وصلَت حالته الآن إلى ما فيه الكفاية من السخرية؛ فرفيق يجده هدفًا نموذجيًّا للإغاظة وكأن هذا بالنسبة له نتيجةُ شرٍّ فطري، إنه ببساطة في حاجة إلى محلول كي يُهدِّئ أعصابه الشديدة الهياج؛ فسخريات رفيق تُخفي مرارة شديدة، وفي أعماقه الشخص الوحيد الصافي في أسرته، لقد اختار عالمه الهادئ، الذي يكشف ضَعف الجميع، بعقله أكثر مما هو طبيعته التي اكتسبها، إنه غير قادر على مواجهةِ كلِّ ما يقترفه، مثل هذا المصير الذي يتعاظم دومًا، حيث يؤرِّقه أنَّ الآخرين لا يأخذون سعادتَهم في الحسبان، ومن هنا يأتي احتقاره وسخريته.

ومنذ حديثه مع رفيق كشف وجهه عن عوائقَ حيوية تبدو مسيطرةً عليه؛ فقد تفجر وجهُه بكل كلماته، فقام من فوق الأريكة وجلس مكانه أمام العم مصطفى.

عادت هدى من المطبخ حاملةً إناءَ العدس ووضعَته فوق المائدة وقالت: اغرفوا لأنفسكم، سأذهب لأوقظ جلال.

قال العم مصطفى: هل غرفتِ للبيه؟

هتف رفيق: البيه! يا لَلسخرية! منذ متى يا عم مصطفى، وأبي بيه؟

فكَّر العم مصطفى قبل أن يردَّ، أراد أن يجد صيغةً جوهرية تسمح له أن يُنقذ كرامته، فقال: أبوك بيه، وأنا أيضًا بيه، ومن قلة الأدب ألَّا تناديَني هكذا خاصةً أنت يا رفيق، أنت تنسى أنني كنت رجلًا غنيًّا.

قال رفيق: لم أنسَ شيئًا، يا عم مصطفى، فأنت رجلٌ مهمٌّ يجب أن تكون وزيرًا. أحسَّ العم مصطفى بالخوار فكظم غيظه ... وبدأ في غَرف العدس، ثم قال بطريقته: لستُ سوى غلام قليل الأدب؛ لذا لن أكلمك بعد الآن.

– يا لَلأسى! لن تكلمني، كيف أستطيع أن أُطيق؟ أجبني يا عم مصطفى، حدِّثني فعلًا أنك لستَ غاضبًا مني!

وكسا رفيق نفسَه بمظهر الحزين، وهو ينظر في توسُّل إلى عمِّه، ولكن العم مصطفى لم يترك له فرصةً للتفكير، فاحتفظ بصمته، وراح يأكل بكل هدوء وهو شاردٌ بينما غَرف سراج طعامه ثم أكل بكل شهية؛ فزياراته إلى المصنع الذي تحت التأسيس قد حفزت مَعِدتَه، وتلاشَت متاعبه التي أحسَّ بها خارج الدار، لقد جرَّب هذا الأمن السهل الذي يخلو من كوارث، وقد خلقت مناقشات رفيق مع العم مصطفى من حوله جوًّا من المجاملة وحرارة عالية، ساد الصمت الغرفة، ولم يتكلم أحد؛ ففي وسط المائدة انطلق البخار من آنية العدس صاعدًا نحو السقف مكوِّنًا سُحُبًا بيضاء، بينما اختفى العجوز حافظ في صورته المكتئبة شيئًا فشيئًا وراء القذارة التي تعلو زجاج الصورة، ولم يَعُد أحد يراه.

– لماذا استيقظتم؟

كان جلال الذي أطلق هذا السؤال قد وقف عند سدة الباب، وقد بدا كأنه خائف أن يوقظه أحد، فلا تزال عيناه نصفَ منغلقتَين، تثاءب وهو يَعضُّ فكَّه، بينما سقط شعره الأشعث فوق جبينه، على وجهٍ شاحب كأنه لجثةٍ آدمية ترتدي جلبابًا واسعًا متسخًا ومليئة ببقع العَرق.

يلتصق بجسده، إنه شخص لم يتغيَّر شكله منذ عدة أشهر، استند على الحائط، وبقيَ أن يتحرَّك، دعَك عينَيه المرهقتَين من النوم، وكأنه يريد أن يعودَ إلى حالته الدائمة، قال رفيق: يا عزيزي جلال، بشرفي نحن نستيقظ كي نأكل، فلا تتصور شيئًا آخر.

قال جلال متنهدًا: أعتقد أنَّ حريقًا قد اندلع.

وتقدَّم مترنحًا، واتخذ معقدًا خاليًا حول المائدة وانتظر لحظةً كي يستعيد وعيه، وتحقَّق بصعوبة من حالته، بدا بالغَ الأسى وهو يتحرَّك وكأنه مضطرٌّ للتحرك. كانت أساليبه الخائفة وحركاته الآلية تبدو بشعةً في كل يوم جديد، راح يغرف مُسنِدًا طبقه قبل أن يضعه أمامه، وتماسك من جديد، أحسَّ أنه لا يزال نائمًا في عالمٍ خاصٍّ، وأنه يجب أن يبقى هكذا أطول مدة ممكنة، لكنه ما لبث أن بدأ يأكل. سأل: أخبرني، هل العدس لذيذ؟

ردَّ رفيق: إنه بشعٌ، ماذا تنتظر من طبيخ الفتاة؟

قال جلال: هذه ليست عيشة، فهناك ما يُزعجنا من هذه الغباءات طيلة النهار.

قال رفيق: لديك الكثير مما يُزعجك، يمكنك بسهولة أن تأكل، حاول، سترى أنَّ الأمر ليس مرعبًا.

قال جلال: سأحاول، عندما ستموتون.

صاح العم مصطفى: يا لَلعار، هل تُهين أباك هكذا؟

ردَّ جلال قلقًا: مَن يهين أبي؟

لقد قلتَ لتوِّك ... عندما ستموتون، أنت يا جلال أكبر إخوتك تصير قدوة سيئة لإخوتك.

راح جلال يأكل غيرَ عابئ بتعليقاتِ عمِّه، وكأن ما يحدث من حوله نوعٌ من الوهم، مؤامرة مدبَّرة ضد سلطان النوم الكبير، فهو يعيش وسط أسرته منغلقًا تمامًا في محبسه، إنه مبتدئ لا يعرف شيئًا عن ملذات هذا العدم الذي له طعم المخدِّرات؛ فجلال يكبرهم بسنوات، أما الشخص الأكثر انفراجًا فهو العم مصطفى، إنه لم يسكن المنزل إلا منذ ثلاث سنوات فقط.

ماذا يمكنه أن يفهم؛ فعندما كان يعيش وحدَه في المدينة كان يحب قضاء وقته في رؤية الناس، يخرج كل مساء، ويتسلَّى بصحبة النساء العابرات، أشياء تحدُث بشكلٍ منتظم، في البداية كان يُثرثر مع جلال، لكن مَن يتصوَّره؟ فقد كان جلال ينام ولا يرد عليه، وسرعان ما فهم العم مصطفى؛ لذا فإنه الآن لا يُزعِج جلال بأيِّ أمرٍ جسيم.

عادَت هدى من المطبخ، وجلسَت على المائدة قريبةً من سراج؛ فهي تأكل مع الأسرة، إنها ابنة واحدة من أقاربَ بعيدين للعجوز حافظ، أرملة مسكينة ليس لها أحدٌ سوى نفسها.

في الدنيا، جاء بها العجوز حافظ لخدمته في فتراتٍ محدودة، تأتي كلَّ يوم للعمل في الدار فتهتم بالمطبخ، ثم تعود في المساء إلى أمها التي تسكن في الضواحي واعتُبرت كفرد من الأسرة وليست كخادمة.

سأل العم مصطفى: هل صَعِدت بالغداء إلى البيه؟

قالت هدى: نعم، انتهيت من ذلك لتوِّي.

قال رفيق: يا عم مصطفى، إذا ظللتَ تُعامل أبي كبيه، فسوف أغضب وأسبِّب كارثة.

– لماذا إذن يا بُني؟

– لأنني لا أحب الامتيازات.

قال العم مصطفى: يا للإهانة، ثم أنا لا أكلمك.

ردَّ رفيق: ثم من ناحية، فإنَّ البيه محلَّ النقاش يستعد للزواج مرةً ثانية، بشرفي سيكون عُرسًا جميلًا.

قال العم: اسكت، هذا الأمر لا يهمُّك، يا الله، هل رأى أحدٌ مثل هذا الطبخ الوقح؟

– ولهذا السبب، فإنك منذ وقت طويل تسمِّيه بيه، تريد أن تُعليَ مكانته، يجب أن يعرف والد الفتاة أنه بيه ... ويمكنك أن تسمِّيَه باشا، وماذا يمنعك؟

سأل جلال في قلقٍ شديد: لماذا تُثير الكثيرَ من الجلبة؟

قال رفيق: عزيزي، في اليوم الذي سيتزوج فيه أبوك لن يكون أمامك دقيقة واحدة للنوم، وأُحب أن أُخبرك بذلك.

صاح: سوف يتزوج أبي، يا خبر أسود، كيف هذا؟ إنه هناك في غرفته لا يخرج منها أبدًا.

– إنه ليس في حاجة للخروج؛ فالحاجَّة زهرة ابنته العاهرة هي التي دبَّرت كلَّ هذا؛ فمنذ وقتٍ طويلٍ لا تكفُّ عن زيارته.

قال جلال وهو في قمَّة المفاجأة: لا تتركها تصعد، اقتلها هنا، يا أخي رفيق ليس لديَّ وقت لأنشغل بهذا العمل، ولكنني واثق فيك، أستحلفك أن تُبعد عنَّا هذه المأساة، امرأة في المنزل، يا خبر أسود!

قال رفيق: لا تفعل، أنا هنا.

ثم وجَّه كلامَه إلى هدى: وأنت، يا بنت الكلب، إذا تركتِها تدخل هنا، فسوف أخنقك.

قال العم: أنتَ تتجاوز حدودك يا رفيق، وأنا أكرِّر عليك، هذا الأمر لا يعنيك.

أكمل رفيق: هل تعرف أنَّ هذه الست الطيبة، الحاجَّة زهرة، تنتمي إلى أسرةٍ نبيلة.

إنها تُردِّد في كل مكان أنَّ أبانا مريض بالسُّكر.

قال سراج: بالسُّكر! لماذا؟

سأل جلال محذرًا لهذا الخبر البائس: نعم لماذا؟

قال رفيق: سوف أشرح لك، أنت بالغ السذاجة كي تفهمَ، فحسب فهْم هذا الجاهل يبدو أن رجلًا مريضًا بالسُّكر، هو رجل أكل الكثيرَ من الحلوى في حياته، ورجل أكل الكثيرَ من الحلوى في حياته ليس لديه ما يهمُّه، مما يعني أنه رجل من طبقةٍ اجتماعية راقية، هل فهمتم الآن؟

انفجر جلال في ضحكٍ رتيب، ثم توقَّف فجأة، لم يتصوَّر أنَّ هذه قصةٌ مضحكة، ولكنها قصة قدرية، قال سراج: ولكن هذه المرأة مجنونة.

قال رفيق: هي ليست مجنونة، إنها تجيد بكل مهارة مهمتنا كخاطبة، أخبِرني مَن هو الأب الذي لن يكون فخورًا أن يزوج ابنته لرجل مريض بمثل هذا المرض؟ هذا يؤكِّد على الأقل أنه لا يأكل الخبز والجبن القريش.

قال جلال: مرة ثانية يا عزيزي رفيق، أبعِد عنَّا هذه المأساة أعتمد عليك، وأُعيِّنك حارسًا لنومنا، اكتشف لنا قدراتك فأنت دارس، وكدتَ تصير مهندسًا.

– لست في حاجة أن أكون مهندسًا كي أمزِّق الحاجَّة زهرة ألفَ قطعة، اعتمد عليَّ.

قال جلال مؤكدًا: أنت شجاع.

قال العم مصطفى: يا أولادي، لا تتدخلوا في هذا الموضوع، فأبوكم هو ربُّ المنزل وإذا قرَّر شيئًا فالأمر يخصُّه.

قال جلال: يا عم مصطفى مستحيل، أنت تريد أن تقتلنا، امرأة في البيت، وكأن هذه الفتاة لا تكفي.

وأثناء هذا النقاش، احتفظت هدى بصمتٍ حذِر؛ فمشروع زواج العجوز حافظ سوف يُولِّد جدلًا لا ينتهي لا ينقصها أن تحتمل ظروفه، إنها تتخوَّف من الأيام القادمة، قامت في صمتٍ وجمعَت الأطباق القذرة وحملَتها إلى المطبخ.

سكتَ العم مصطفى لكنه لم يستغرق في التفكير؛ فهو لا يمكنه أن يضفيَ احترامًا بوسائله الخاصة، فقد أخذ مبادرةَ الدفاع عن قرارات أخيه؛ فغياب العجوز حافظ الدائم يخوِّل له السلطة، وللأسف فإنه يستخدمها بشكلٍ سيئ، مما جعله مصدرَ سخرية دائمة لأبناء أخيه.

فالعم مصطفى يعاني من قناعةٍ في لبس دوره كنائبٍ لأخيه، وفي الحقيقة فإنه يحب هذا المنزل الهادئ، والذي تعوَّد عليه دومًا، فهو ينام الآن أطولَ من الآخرين، وأحيانًا يتذكَّر

حياته القديمة كعازبٍ ثريٍّ وينتابه الندم، وتسيطر عليه المرارة، أطلق بعضَ التنهيدات بعمق شديد، ونظر حوله في كآبة، تعطي تنهيدةُ العم مصطفى دائمًا الإحساسَ بقدرةٍ غاشمة ومروعة، تكفهر الوجوه فيما وراء حدود السأم. قال رفيق: يا عم مصطفى، يجب أن تعمل في الراديو، فتنهيداتك ستكون مشهورة، أحب تنهيدتك، مثلما يُثير العالم السَّأم فيك.

– لا أفهم سلوكك، ماذا تقصد؟

قال رفيق: ببساطة أعتقد أنه خسارة أن تضيع مثل هذه التنهدات الجميلة على أمرٍ غريب أنا متأكد أن الراديو سوف يدفع لك جيدًا.

ردَّ العم مصطفى على هذه الدعابة بأن أطلق أيضًا واحدةً من تنهداته المميزة ثم سكت.

قال جلال: عندك حق أن تتنهَّد يا عم مصطفى؛ فالأمر مرعب أن تنتظر هكذا، أين ذهبت هذه الفتاة إذن؟

سأل رفيق: ماذا تنتظر أيضًا؟

– أنتظر التحلية، وليس لديَّ وقت.

– أنت متعجِّل جدًّا.

وبعد دقيقة عادَت هدى حاملةً طبقًا مليئًا بالبرتقال ووضعَته فوق المائدة، قال جلال: سآخذ برتقالتي وسآكلها في سريري، فلآخذ اثنتين، برتقالة العشاء أيضًا، لا أعتقد أنني قادر على حضور العشاء معكم هذ المساء؛ فليس لديَّ من الوقت لأضيعَه في صالة الطعام هذه.

قام وتوجَّه نحو الباب، استدار فجأةً: لستُ في حاجة لأن أقول، لكن ألَا تُثيرون جلبة، اخلدوا إلى النوم، ما الذي يُبقيكم متيقظين؟ بشرفي، أنتم جميعًا مخطئون، سلام عليكم.

قال رفيق: وداعًا، ولا تنسَ أن تكتب لنا، فنحن في أشد القلق لسماع أخبارك.

٤

عندما تحين ساعة القيلولة المقدَّسة، يسود البيتَ سكونٌ يبدو كأنه يغوص في أعماق الصمت، تسمع أحيانًا أصواتًا مكتومةً لأطباقٍ غير مرئية، تغشى في جو السكون، تبدو كصيحةٍ ضائعة عبر النوم الثقيل. تمدَّد رفيق فوق سريره، فهو لم ينَم، العينان مفتوحتان في الظلام، إنه متيقِّظ بحساسيةٍ مفرِطة، أنهك نفسَه في نضالٍ شديد ضد الخمول، في انتظار الحاجَّة زهرة، الخاطبة التي تخاطر بدسائسها في أن تقلب حالَ المنزل، قرَّر ألَّا يتمَّ زواج أبيه؛ لذا، فعليه ألَّا ينام لبضعة أيام، إنه أمرٌ بشِع مجنون، يمكن لرفيق أن يسبِّب التعب لأبيه.

ولعله لن يبلغ نهايةَ مهمَّته، يلمع العَرق على جبينه، يناضل المللَ المؤذي الذي يُصيب أعضاءه بالوسوسة التي تسري فيه بطء الكسل. هنا بدأت المعاناة تنغِّص عليه، فاستند على مرفقَيه، وتنهَّد بعمق، وسمِع أنفاسه العميقة، وراح يحذِّر نفسَه: لقد فشل في إيقاظ جلال الذي يرقد فوق السرير المجاور، أدار وجهه نحو الحائط؟ اندفن تمامًا تحت اللحاف، فلا تكدِّره مشقةُ تلك الأنفاس اللاهثة لنومه الأشبه بالموت، فرفيق يُعجب بهذا الغناء الصدَّاح الذي لا يسبِّب له أي قلق، إنها حالة من السُّبات الدائم والنوم المستمر، ليس لدى جلال الخيار، فنومه ليس رغبةً في الهروب من عالمٍ لا يعجبه، بل أن يتجاهل كلَّ ما هو موجود بعيدًا عن إنسانيةٍ مليئةٍ بالمعاناة يُهدِّدها الجشع؛ لذا يستسلم للنوم بشكل طبيعي بلا أي مبالاة كأنَّ الشخير أمرٌ عاديٌّ مبهج.

أما رفيق فعلى العكس فهو صاحب رؤية عالم متواضع مسكين، لقد اختار النوم كمأوًى، وهو لا يحس بالراحة إلا خلف هذه الجدران المحاطة بالمتاريس ضد الكائنات والأشياء المنحوتة التي تُحوِّط المنزل، حيث تعلو كومة من رُكام الوجوه الإنسانية، تبدو له بالغةَ البشاعة.

تذكَّر بشكلٍ مشوَّش الزمنَ الذي كان يخرج فيه، واتصالاته القائمة على المصادفة مع البشر، إنهم جميعًا قَتَلة، وقد احتفظ لنفسه بكراهيةٍ لا حدَّ لها؛ فعندما كان أصغرَ سنًّا، فَهِم قيمةَ الوجود الذي يسير على وتيرةٍ واحدة إلى الأبد، التي يقدِّمها له منزل الأهل، هذا الأمن الذي يتخلَّص من كلِّ موجود، يرجع الفضل فيه إلى العجوز حافظ، الذي يصنع حوله جوًّا من الفراغ الأبدي؛ ولذا فرفيق يحترم أباه من أجل هذا النظام الرائع، الذي يوفِّر له الكسل والخمول، وهو مُدان للفكرة الوحيدة التي طلع بها من الدنيا، وعندما يُضطر في أي وقتٍ أن يضحيَ بحبِّه من أجل امرأة، وأن يخضع لرغبةِ أبيه، فإنَّ رفيق لا يتردَّد، رغم المعاناة التي تُكلِّفه مثل هذه التضحية؛ فالعجوز حافظ على حق، ورفيق يأخذ ذلك في الحسبان ويبادر في تنفيذه في الوقت المناسب، لكن الآن فالعجوز حافظ يحاول أن يحصل على هذا الأمن، وتلك الخبرة البالغة الصعوبة عبْر الأجيال، لقد تمرَّد عليه رفيق، ويُحس أنه قد أُهين وتعرَّض للخيانة.

هذه المرأة التي أحبَّها رفيق، في الوقت الذي كان يخرج فيه كانت عاهرة شابة تسكن في البيت القديم المتصدِّع الذي يقع على الطريق الرئيسي، يسمُّونها في الحي «إمتثال، صديقة الطلبة» لأنها لا تستقبل زبائنها إلا من بين الشباب الجامعيِّين، وكل زبائنها، البالغين لتوِّهم، يُهرعون إلى بابها، كان رفيق يزورها أحيانًا في صحبة تلاميذَ آخرين، في البداية لم تنتبه إمتثال إليه، فهو مجرَّد زبون مثل الآخرين، ثم جاءت اللحظة التي بدأت تُعامله بطريقةٍ خاصة، رفضت النقودَ التي يعطيها لها، وأحسَّ رفيق بتميُّز خاص وهو يتصوَّر نفسه مخلوقًا غريبًا.

بدَت إمتثال كأنها ذاقت منه متعةً غريبة وهي تمارس الحبَّ معه، وجاء الوقت الذي اكتشف فيه رفيق لهيبَ الجسد، فلم يستطِع أن ينساها، وبدأت إمتثال تحبُّه لدرجةِ الجنون، ولم تَعُد تستقبل المزيدَ من الزبائن، وراحت تقضي أوقاتها في انتظاره، وأصبحت رمزًا للوفاء، وخلال بضعة أشهر من هذه العاطفة القوية، فكَّر رفيق أن يقترن بإمتثال وأن يأتيَ بها لتعيش معه في البيت.

وعندما حدَّث أباه بالأمر، بدا العجوز حافظ عنيدًا، وعارض ذلك بشدة، ووضع ابنه في خيار إما أن يترك البيت، أو أن يتخلى عن مشروعه الطائش. وكان أول رد فعلٍ لرفيق أن ترك البيت، وعاشر إمتثال، لكن النقود بدأت تنقصهم من أجل المعيشة، فماذا يفعل، عليه أن يعمل، بدَت هذه الجملة صعبةً لدرجة أن رفيق لم يستطِع أن ينطق بها، فكَّر مليًّا، أن يوازن بين عاطفته الحقيقية وتقلُّبات الحياة؛ فالنوم والسكينة سوف يلغيان، وفي النهاية

تخلَّى عن حبِّه ولم تَعُد أي قوة جسدية تُقارن براحته، وأعلن لإمتثال رفْضَ أبيه، حدَّثها بقراره في الانفصال عنها، وهكذا كانت المأساة التي لم تنتهِ.

حدثت هذه المغامرة منذ عامين تقريبًا، لكنَّ رفيق لم ينسَ قط قوةَ اللحظات الشهوانية التي تشعله ذكرياتُها كثيرًا فلا تخمد، راحَت صورة إمتثال تُؤرقه حتى في نومه، ومنذ انفصالهما، لم تودَّ قط أن تراه، عادت إلى حياتها القديمة كعاهرة، وجاء الطلاب الشباب يطرقون بابَها، وراح رفيق يكظم غيظه عن كلِّ ما تفعله، حتى إنها ولدَت طفلًا سفاحًا لا تعرف له أبًا، فقامت بتربيته في الغرفة الوحيدة التي تمارِس فيها الحب.

ما يؤرِّق رفيق حقًّا، ليس انفصاله عن إمتثال، ولكنه سوء التفاهم الذي حدث بينهما، فإمتثال لم تفهم سوى شيء واحد، أن رفيق لم يَعُد يحبُّها، وأن ليس لديه الوقت ليجعلها تفهم الدوافع الأساسية لفراقهما، تصوَّرته قوادًا؛ لأنه أخبرها أنه لا يودُّ أن يعمل، ودون أن تحاول أن تسمع، راحَت تصرخ في جنونٍ ثم طردَته من منزلها يُلاحق بلعناتها.

لا يزال رفيق يرغب أن يراها مرةً أخرى، حاول أن يشرح لها بالتفصيل عن جمال هذه الحياة الخاوية التي يفضِّلها عن حبِّه، وقبل بضعة أيام، كلَّف هدى أن تذهب إليها في منزلها كي تستحلفَها بأن يتفقا على موعد، ولكن هدى أخبرته قبل الغداء، بفشل المحاولة، لقد رفضت إمتثال أن تستقبله. ومنذ هذه اللحظة راح رفيق يفكِّر في وسيلة واحدة للاقتراب من إمتثال، أن يذهب إليها بغتةً وأن يجبرها أن تسمعه، قرَّر أن يخرج هذا المساء، ولكن هل ستستقبله؟ لقد عرف معاناةَ التفكير في هذا اللقاء؛ وذلك لأنها أقوى منه، إنه في حاجة أن يجرِّب المحاولة الأخيرة مع إمتثال، لعله يجعلها تفهم أنه لن يكفَّ أبدًا عن حبها، وأنَّ هذا لا يعني ممارسة الحب فهو ببساطة غير قادر أن يترك منزل أبويه، هذا المأوى الذي يحفظه ضد كل بشاعة العالم، وأن يُخبرها أنَّ كلَّ البشر قَتَلة، إنه يخاف منهم. ستعامله بكل تأكيد كمجنون، لا يهم؛ فبعد هذا القرار الجريء، سيكون أكثرَ هدوءًا، لأنه منذ مأساة الحب الذي انزلق بينه وبين النوم، لم يَعُد يستطيع استعادةَ سكينته بسهولة، فقد أرَّقه شبحُ إمتثال وأصابه بمرارة، فهي مائلة أمامه كأنها عائق.

قام رفيق من فوق السرير، وخرج من الغرفة، عبر الممر، وفي المطبخ تكوَّمت هدى الصغيرة كفأر ضئيل، انزلق رفيق دون أن يُثير أي ضجة، ودخل غرفة الطعام، وقد نوى أن يعترض الحاجَّة زهرة كي يمنعها أن ترى أباه، وألَّا يتركها تمرُّ من أمامه، في هذا الشأن فإن غرفة الطعام مكانٌ جيد للمراقبة، ومن الباب الكبير المفتوح على الدهاليز يستطيع رفيق أن يرقب السُّلَّم الخشبي الذي يؤدي إلى الدور العلوي وإذا ما جاءت الحاجَّة زهرة

فإنه يستطيع أن يراها، ثم هناك الأريكة للحظة، فالوقت لا يزال مبكرًا، غامر بالنوم للحظة، يجب أن يُثبت ذاته، بدون كل هذا ستصير مهارته عميقة، تنهَّد رفيق وتأهَّب لاستخدام كل الطاقة الكامنة فيه، ثم ذهب إلى النافذة ونظر عبْر الزجاج نحو الحارة النائمة، في هذه الساعة ينام الجميع في المنزل المقابل، إنها عمارة من ثلاثة أدوار، تم إنشاؤها حديثًا، لم تُطْلَ جدرانها بالمحارة. وتبدو أشبه بسجنٍ كريه، لم يرَ رفيق فيه سوى الرجال، أما النساء فعليهن الاختباء، أو أن يقبعن خلف الشبابيك المغلقة، هذه الأسرة البرجوازية، ذات السلوك والعادات الوحشية، تمنع بناتها أن يكشفن أنفسهن أمام الأغراب، فكَّر رفيق في أنه يتمنَّى أن ينام مع إحداهن، إنها مغامرة، لعلهن دميمات، تخلَّى عن فكرته بلا ندم، وبعد لحظةٍ ظهر طفلٌ قادم من ناحية الطريق، يلعب بالطوق، إنه طوقٌ حديدي بالغ الثِّقل، حرَّكه الطفل بصعوبةٍ فوق الأرض ثم اختفى حين دار في الحارة وهو يُطلق صراخاتٍ ملعلعة.

بدأ رفيق في الإحساس المدمِّر بهذه الإهانة القديمة، ارتعدَت أهدابه وارتخَت ساقاه، فكرة أنه مضطر أن يتنازل عن قيلولته بسبب هذه الملعونة الحاجَّة زهرة التي تُشكل بالنسبة له أمرًا لا يمكن احتماله، لا يمكن أن يستمر هذا الأمر، تمدَّد فوق الأريكة، ووضع يدَه فوق الزجاج، وأدار رأسه، وقاوم النوم بكلِّ ما لديه من قوة، وأحسَّ أنه يسبح ضد التيار وسط نهر مليء بالدوامات الخادعة، ومن وقت لآخر راح يقاوم، ورفع رأسه، وتنفَّس بعمق، فوجد نفسَه غارقًا في هزةٍ عميقة، فجأةً ارتد إلى أُذُنه صوتٌ قادم من بعيد، تصوَّر أنه يحلُم، فاهتز، ثم راح ينصت باهتمام، اقتربت الهمهمات وتضخَّمت وأصبحت جلبةً صامتة لجمعٍ غفير يمشي، أحسَّ به رفيق يقترب منه، وبعد قليل أمكنه أن يرى موكبًا غريبًا يتحرك أمام النافذة.

عرف الرجل الذي يحمل السلاسل الحديدية، تتبَعه مجموعةُ أطفال يُحدِثون جلبة، يمشي أمامه راكضًا، كي يتأمله أفضل، أما الرجل الذي يحمل السلاسل فقد بدا عملاقًا، طويلَ الشَّعر المجدل، الذي يتدلَّى حتى كتفَيه، وقد أطلق لحيته التي أحاطت وجهه الأسود الغارق في العَرق، نصفه الأعلى عارٍ وقد تحزَّم بمئزرة من السلاسل التفَّت أيضًا حول عرقوبه، وراحت تثقل حركتَه مما يُثير التعاطفَ معه، بدا كأنه يودُّ أن يُفلت من المئزرة الوهمية البعيدة.

وبقطعةٍ ضخمة من الزلط التي أمسكها بيده اليمنى راح يطرق على صدره ناحية القلب، كانت الضربات قوية، وفي كل مرة يرفع ذراعيه، فإن جموع الأطفال تصمت في قلقٍ خاصةً حين تحطَّمت الزلطة، بدا الجسم وكأنه قطعةُ أرضٍ طينية مليئة بالشقوق،

ومع كل ضربة كان يُطلق زمجرةً مكتومة بكلمات غامضة تُشبه الابتهال، يلعب دوره كأنه مذنب نائب، يمرُّ بمأساة بديعة، أحيانًا، يُلقي شخصٌ ما من إحدى النوافذ قطعةَ نقود معدنية، راح الرجل يحملها ويضعها في جيبه الجلدي المعلَّق على صدره.

لقد رآه رفيق عدةَ مرات، خاصةً عندما كان طفلًا، تتبَّع عروضه عبْر الحارات ... لكن هل هو نفس الشخص؟ إنهم عديدون هؤلاء الذين يقومون بهذا النوع من الاستجداء الاستعراضي، إنهم يقدِّمون سحرًا متنافرًا ويمارسون حِيَلًا يعاقبون بها أنفسَهم كي يستدرُّوا شفقةَ الناس، أُعجب رفيق بهذه الأمور الشيطانية التي يقدِّمها الناس من أجل أن يعيشوا، تبدو له كأنها آخرُ حدود كابوس كوني. نظر الرجل المقيَّد بالسلاسل نحو النافذة، ورفع ذراعه ببطء وضرب بزلطة ثقيلة فوق صدره، وخلال لحظة قصيرة، تركَّزَت نظرتُه على رفيق الواقف خلف الزجاج، أغلق رفيق عينَيه، وظل ساكنًا، بدَت نظرة الرجل الحادة كأنها تُوَجَّه نحوه كسكين، انتظر طويلًا أن تخفَّ جلبة الجماهير، ثم استدار.

ومرةً أخرى، ساد الصمت، والهدوء، وأحس رفيق أنه مريض، أصابه الملل، ارتبك من الخجل والقرف وبشكلٍ غريزي توجَّه نحو الأريكة، وتمدَّد عليها، كان مشهد البشر يثير لديه البؤس والنفور وكأنه يمتزج بسقوطهم، بذلَ ما بوسعه كي يحتميَ ضد كلِّ الأمور المماثلة؛ فالجدران تفصل بينه وبين هذه الإنسانة المعدومة، فهو لا يودُّ أن يكون مشاركًا في مثل هذه الدناءات؟ أحسَّ بالمهانة، وشعر بفورانٍ دفعَه أن يكون شاهدًا على همجيةٍ غير محسوسة، إنها مجزرة حقيقية، ففي كل مكان توجد نفسُ الأشياء المخبولة يتصرفون مثل قطيع بنفس الكذبات الأبدية.

تنهَّد رفيق بعمق، واسترخى، محاولًا أن ينسى النظرةَ المرعبة للرجل الذي كان يحمل السلاسل، إنه شيء لا يمكن نسيانه، كم من الوقت يلزمه كي ينسى رؤيةَ قَتَلَةٍ يمتثلون أمامه؟ إنه يودُّ أن يتخفى، تتصاعد روائحُ كريهة عبْر فتحاتِ مكمنِه، فكَّر في الخروج والذهاب إلى إمتثال أنه بذلك يجرِّب أمرًا غيرَ منطقي، تساءل: سيكون هذا هو الخروج الأخير.

وبقي ساكنًا في حالةِ انتظار، الأُذن تُنصت، ليس لديه سوى الصمتِ، صمتٍ غير محسوس، مفرَّغ من كل جوهر، فجأةً، رنَّ صوتٌ في الطابق العلوي، إنه العجوز حافظ الذي ينادي على هدى، يبدو صوته مخنوقًا بصمتٍ موحش، اهتزَّ رفيق فرَحًا وجرى إلى الباب، ونظر نحو الممر، ورأى هدى تهرول بسرعة على السُّلم حافيةَ القدمين، صُدمت الفتاة وهي تراه ثم توقَّفت في عَدْوها: تعالَي هنا، يا بنت.

تراجعت خُطى هدى على درجات السُّلم واقتربت منه بكل هلع، قال رفيق: أعرف لماذا يناديك، إنه يريد أن يعرف إذا كانت الحاجَّة زهرة قد جاءت، ستُخبرينه، أنها لم تأتِ، وأنها لن تحضر أبدًا، سوف أخنقك إذا تركت هذه المرأة تدخل البيت، فأنا أنتظرها هنا.

قالت هدى: هذا لا يهمني، ماذا أفعل في هذه الحكاية، لماذا تحشرني فيها؟

– أعرف أنه وعدكِ بنقود، وأنتِ تريدين أن تكوني سببًا لمصائبنا أيتها القذرة.

كادت هدى أن تبكي، إنها تعرف مدى وقاحة رفيق، أسلوبه الجاف والعنيف، أخفضت عينَيها، وبدا عليها الحياء وامتلأت قائلة: لا أريد نقودًا، لا أريد شيئًا، هل طلبت شيئًا؟ أنا أفعل ما يُطلب مني أن أفعله.

صرخ رفيق: افعلي ما أقوله لكِ؟

همسَت هدى: اسكت، سوف توقظ الجميع.

وسكتَ رفيق، وقد حيَّره هذا النداء، وسيطرة النوم، هو الذي اعتاد الحذرَ واحترامَ نوم الآخرين، ماذا حدث له؟ بلا شك فإنَّ الإنهاك أفقده القدرةَ على التحكُّم في التفكير.

ولكن لديه أيضًا شيء آخر، أحسَّ رفيق أنه يرغب في هدى، وأنَّ رغبته قد تولَّدت في اللحظة التي همست له أن يسكت، هذا الصمت ذو الطبيعة الشهوانية ولَّد لديه لذةً مكبوتة، ربَّتَ على رقبة هدى، أراد أن يسحبها نحو الأريكة، قائلًا: تعالَي.

هزَّت رأسها وحاولت أن تتخلَّص منه، وهي تقول: ليس الآن، ليس لديَّ وقت، فسيدي يناديني، سآتي فيما بعدُ.

لكن رفيق لم يسمعها، خنقها بقامته، وضمَّها إليه برغبةٍ مجنونة في النوم أكثر من اللذة، راح قلبُ هدى يخفق في صمت، تعرف أنه ينتظرها، فهذا هو كلُّ ما يقترفونه معها، فتَّش رفيق أسفل فستانها، وحاول أن يجعلها تلمس عضوه، راحت أصابعه تلمسها، وسرَت الرِّعشة في جسدها، فراحت تقاوم بقوة، حسبت أن رفيق يغرق وأن حركاته مائعة بلا إرادة.

بدأ رفيق يشعر بالملل من هذه المقاومة، ثم ألقت برأسها نحو الخلف، تثاءب، وقد قلَّ توتُّره، وأحسَّ بنفسه ينزلق في غابة من اللاوعي، واستطاعت هدى بحركةٍ مفاجئة أن تهرب من عناقه وراحت تقفز فوق السُّلم.

– سوف أخنقك يا بنت المومس.

انتظر أسفل السُّلم لحظةً، وسمِع صيحات أبيه الذي راح يوبِّخ هدى التي تأخَّرت عليه.

٤

ثم ساد صمتٌ ثقيل وشَرِه، راح رفيق يلهث بسبب رغبته المحبَطة، ولم يَعُد يحسُّ بساقَيه، وأدار رأسه كأن دُوارًا أصابه، إنه ينام، لكنه شديد الغضب من نفسه كي يعود لينام فوق الأريكة، إنه في حاجة أن يتكلم إلى أي شخص.

٥

لم ينَم سراج، بل استراح فقط، وعندما دخل رفيق الغرفةَ، فتح عينَيه وبُوغت برؤية أخيه مستيقظًا في مثل هذه اللحظات المقدسة من القيلولة.

– لماذا أنت مستيقظ؟ هل أصابك جنون؟

ردَّ رفيق: لستُ مجنونًا، ربما أكثر من هذا، يبدو أنك لم تنتبه لهذا، فبينما أنت نائم، كنتَ الوحيد المنشغل بالمأساة التي تهدِّدنا.

– عن أيِّ مأساة تتكلم؟

– يبدو أنك لم تفهم بعدُ، فعلًا فأنت لا تفكر سوى في التصعُلك في الشوارع طالما أنَّ زواج أبيك يجب أن يجعلك تفكر، إنها كارثة تعمُّ علينا جميعًا يا أخي سراج، سكينتنا مهدَّدة ألا تفهم ذلك؟

– هل تؤمن فعلًا بهذا الزواج؟

– بالتأكيد، وسوف ينفِّذه أبوك، وليس هذا سوى تغابٍ علينا؛ فمنذ وقتٍ طويل وهو لا يتغابى على أحدٍ، لقد جاءته هذه الفكرة بغتةً، وأنا واثق أنَّه تعمَّدها.

جلس على طرَف السرير، ووضع ساقَيه أسفله، وغطَّى وجهه بيدَيه، كانت النافذة مفتوحةَ المصراعين، فأغرق ضوءُ النهار الغرفة؛ ولأن رفيق يكره هذا الضوءَ البارد الذي يُغلِّفه مثلَ الكفن، فقد قال: كيف يمكنك أن تنام في هذا الضوء؟

قال سراج: أنا لا أنام، أحاول أن أعتادَ على ضوء النهار، لا أودُّ أن أعيش في الظلام.

أطلق رفيق تنهيدةً دون أن يردَّ، وضعَ وجهه بين يديه، وكأنه يفكِّر، فهو لم يزَل يتذكَّر محاولته مع هدى، تملَّكته رغبةٌ ثائرة، نظر إليه سراج بتعاطفٍ ملحوظ وأحسَّ أنه يناضل ضد النوم وأنه جادٌّ في معرفة ردود فِعله، هل سيحاول ثانية؟ لم يسبق له أن رأى

أخاه يبذل مجهودًا مثل هذا كي يهرب من سطوة النوم المسمومة الأشبه بمعجزة، معجزة رجل معلَّق فوق هاوية ومثبَّت في الجو برغبته الوحيدة.

– ماذا ستفعل؟

كشف رفيق وجهه، وأغلق عينيه، وقال بلهجة ساخرة: إذا استيقظتُ في هذه الساعة، يا عزيزي سراج، فليس عن رغبة مني، صدِّقني، فأنا لديَّ خطة مفادها ألَّا أترك الحاجَّة زهرة تدخل المنزل، وهكذا لن يتمكن أبوك من الزواج أبدًا. الأمر بالغُ السهولة، ومثلما تراني، سأنتظر الحاجَّة زهرة كي أطردها إلى الخارج.

– إذن ستقضي وقتك في انتظارها.

– أجل، سأنتظرها لأطول وقت ممكن.

– لكن هذا يمكن أن يستمر شهورًا.

– حسنًا، سأنتظرها شهورًا أو ربما سنينًا لو استوجب الأمر.

قال سراج: أنت بطل، لا أعتقد أنك قادرٌ على مثل هذه التضحية.

قال رفيق: هذه التضحية سوف تنقذ حياتنا، أنت لا تتخيَّل الأمر، وجود امرأة بيننا، فخلال بضعة أيام سنتحوَّل إلى عبيد.

وسكتا، لم يتوقَّف سراج عن التفكير في سلوكِ أخيه، وأنَّ رفيق ترك نوم القيلولة بسبب قصة هذا الزواج، وكأنه شيء أخرق، شيء ما يجب أن يدفعه ثمنًا لهذه القسوة المتناهية ربما للكراهية التي يكنُّها لأبيه، قال: وأنت أيضًا، كنت ستأتي بامرأة ذات يوم إلى المنزل، هل نسيت؟

لقد أخبرت أباك عن حكايتك مع إمتثال.

قفز رفيق، بدا كأنه يَخرُج شيئًا فشيئًا من خموله، واستدار نحو سراج رمقَه بنظرة فسيحة، وقال: ليس صحيحًا، لم أكن أودُّها، أنت لا تعرف كلَّ الاحترام الذي أكنُّه له، أنا معجب بأسلوب الحياة الذي يعيشه ويحوطنا به، إنه لم يودَّ قط أن يدخل في عمل، ولم يحاول أن يُنمِّيَ ثروته، وخاصة أنه يحتقر الآخرين دائمًا، كلُّ أفراد أسرتنا أمامه أقربُ إلى الخَدَم طالما أنه أكثرهم ثراءً، ونحن مدانون لهذا القلق وهذا الفراغ العجيب، الآن يريد أن يطلب كل شيء، ولن أسمح له بهذا.

قال سراج: أنا لا أرى أن هذا الزواج سيقلب حياتنا.

– كيف لا تفهم؟ هذه المرأة يمكن أن تهدمه، امرأةٌ هذا يعني فساتين، ومجوهرات، وماذا أيضًا؟ إنها يمكن ذات يوم أن تعتقد أن الشياطين يركبونها وتريد أن تُقيم لهم مزارًا، ولك أن ترانا نيامًا وسط كل هذه الرقصات الهيستيرية.

٥

راح سراج يضحك، فقد جعلت فكرة رفيق وجهَه يحمر، كأنها نكتة بديعة، قال رفيق في جمودٍ: لا تضحك، فالأمر جاد، فأبوك يمكنه أن يضع آخرَ مليم في هذه المغامرة، وسنكون مضطرين للعمل.

قال سراج: حسنًا؟ أنا لا أطلب أفضل من هذا.

– يا غبي، سوف تندم على هذا الكلام.

– أؤكد لك يا رفيق أنني أريد أن أعمل.

– تريد أن تعمل، أتساءل كيف انتابتك هذه الفكرة، على كل حال أنت أكيد لستَ من العائلة.

قال سراج في يأسٍ: أريد أن أعمل، وأترك هذا المنزل.

– بشرفي، أنت جاحد، لو لم تكن أخي لتركتك تجرِّب هذا الجنون لكنني أُشفق عليك. على فكرة، ماذا حدث لمصنعك؟

ردَّ سراج: المصنع دائمًا على نفس الحال، لقد رأيته هذا الصباح مجددًا ويبدو أنَّ أحدًا لا يريد أن ينهيَه.

قال رفيق: إذن أنهِه أنت ... إنه حالة استثنائية، ممَّ تشكو؟

– أنت تسخر مني يا ملعون؟

– اسمع يا سراج، أنا لا أسخر منك، أحاول فقط أن أُبعدك عن طريق الشر، صدِّقني، العمل ليس أمرًا هامًّا بالنسبة لك ولا لنا.

قال سراج: ربما، ولكنني لا أستطيع الاستمرارَ في العيش هكذا.

– أنت شاب، وأنا أُشفق عليك، أنت لا تعرف ماذا يعني مصنع؟

– وأنت، هل تعرف؟

قال رفيق: نعم عندما كنت أدرس كي أُصبح مهندسًا، جعلونا نزور المصنع، إنها مبانٍ ضخمة غير صحية وكئيبة، وقد قضيت فيها أكثرَ اللحظات رعبًا في حياتي، رأيت رجالًا يعملون في هذه المصانع، إنهم ليسوا بشرًا، فهم يحملون البؤس المرسوم على وجوههم، وإذا كنتُ قد تركتُ دراستي فلأنني لم أكن مستعدًّا أن أكون رئيسًا لهذه الجموع المليئة بالمعاناة.

ارتعد سراج لهذا الابتهال المرير وأغلق عينَيه، ورأى حُلمه الرومانسي في العمل ينهار، وغاص في متاهةٍ من الألم لا يقدِر عليها، وهكذا فإنَّ العمل ليس سوى لعنة، ومعاناة، سكت سراج، قد أحس أنه فريسةٌ لقلق صارم.

ساد صمتٌ لبعض الوقت، ثم سمِعَا حركة خفيفة، قفز رفيق بعيدًا عن السرير، وفتح الباب وألقى نظرة على الممر، وهو يقول: لا، لا يوجد أحد.

سأل سراج: هل تعتقد أنها الحاجَّة زهرة؟

– أجل، أعتقد أنها هي، لا يهم، يجب أن أتحرك وإلا نِمْت، يا للبؤس، لا أستطيع أن أعتمد على أحد منكم؛ فأخوك جلال ينام قريرَ العين وهو لم ينتبه بعدُ إلى الكارثة التي تُهدده، ولكن عمَّا قريب لن يستطيع النوم.

قال سراج: ماذا ستفعل لتمنعه من النوم، لا شيء يمكن أن يوقظ جلال ولا أعتقد أنه يفكِّر في هذه الحكاية، بل عليه أن ينساها.

قال رفيق: لن ينساها طويلًا؛ فقد اكتفيت برؤيته يستريح في هدوء، بينما أنا أموت من السُّهاد، عليه أن يساعدني.

– يا الله، لم أرَ جلال يغادر سريره كي يقاوم قدوم الحاجَّة زهرة، أنت مجنون لأنك تفكر فيه.

– صدِّقني، سأصل إلى حدٍّ أن أُطلق الرصاص على سريره، فهو لم يحسَّ بعدُ بهذا الزواج المأسوي، وعندما سيعرفه لن ينام أبدًا.

راح رفيق يمشي في الغرفة، ومن وقتٍ لآخر، يتوقَّف أمام النافذة، كانت حجرة سراج تقع في الجانب الخلفي للمنزل، وتُطِل على أرضٍ خراب، تنمو فيها شجيرات هزيلة تختلط بكل أنواع النفايات.

وسط الأرض كانت هناك نخيلة، جافة، وبلا ثمار، وعلى جذعها يأتي الناس لقضاء حاجاتهم، وفي تلك اللحظة، قرفص طفل، ورفع جلبابه حتى أجزائه الحساسة، وراح يتصرَّف بشكل كئيب، وعلى مسافةٍ أبعدَ قليلًا، شاهد الخط المتعرِّج للبيوت التي تتجاوز الحقول، بدا رفيق سعيدًا؛ فقد نبَّه سراج لتوِّه من أوهامه، وأراد أن يحذِّره بشكل محدَّد من العمل، إنها خدمةٌ جليلة يؤديها له، استدار وقال بفظاظة واضحة: هل تعرف يا عزيزي سراج، أنَّ هناك الكثير من البلاد يستيقظ فيها الناس في الرابعة صباحًا كي يذهبوا إلى المناجم!

قال سراج: المناجم! غريبة، هل تريد إخافتي؟

بدا مرتبكًا، انتهى هذا المفهوم المثير للعمل الذي جعله رفيق يذوقه نقطةً نقطة، مثل السُّم، بأن بدا له حقيقة، أراد أن يتعلم منه المزيد ولكن رفيق سكت، واستعاد سيرَه عبر الغرفة: أخبرني، يا أخي رفيق، أنه ليس صحيحًا ما قلته لي لتوِّك؟

٥

– ماذا؟

– إنه في بعض البلاد يستيقظ الناس في الرابعة صباحًا ليذهبوا للعمل في المناجم.

قال رفيق: هذا صحيح، هنا ليس لدينا مناجم، ولكن هذا سيحدُث، سوف يتم اكتشافها، سيكتشفون أيَّ شيء لكي يعمل الناس ويكدُّوا.

– ولكن أليس من الممكن أن يعملوا في أي مكان آخر؟

– مَن قال لك هذا؟

– لا أحد، ولكني أعرفك أفضل من الناس، أقول لك إنهم لن يتأخروا طويلًا في إفساد هذا الوادي الخصيب، ويحولوه إلى جحيم، هذا هو ما يسمونه تقدُّمًا، ألم تسمع هذه الكلمة؟ حسنًا، عندما يحدِّثك رجل عن التقدُّم فاعرف أنه يود استغلالك، على كلٍّ، بالنسبة لما نحن فيه، فإنَّ أمنًا رائعًا يمتدُّ حولك، وأنت تريد الخروج منه، أنت مجنون، أنت لا تعرف ماذا ينتظرك.

توقَّف رفيق من جديد أمام النافذة، ولم يقُل شيئًا، نظر إلى النخلة الذابلة التي توازن بلحها بشكل يُثير الملل، لقد رحل الطفل، وحلَّ محلَّه رجلٌ طاعن في السن، يلفُّ شريطًا على رأسه، بدا كأنه يقف وسيظل يقف للأبد، وقد ثبَّت عينَيه في الأفق، بشكل يائس، وراح يدقِّق في الكيان الآدمي الجالس القرفصاء، وقد بدا سعيدًا في غائطه، استدار رفيق، واقترب من السرير: أخبِرْني، لقد سألتك أثناء الغداء عن بعض الأخبار التي تجلبها من الخارج، في الحقيقة أريد أن أعرف ظروفَ الطقس، هل الجو شديد البرودة؟ أم هل هناك الكثير من الغبار؟

– لماذا كل هذه الأسئلة؟

قال رفيق: يجب أن أخرج ... لكني لم أقرِّر بعدُ، ليس هذا سوى فكرة.

نظر سراج إلى أخيه بكل دهشة: هل ستخرج يا رفيق؟

– نعم، سأخرج، لكن صدِّقني، ليس للبحث عن عمل. والآن، نَم جيدًا، وسوف أحاول أن أُبعد الشرَّ عنَّا.

خرج من الغرفة، واستدار في صالة الطعام، وقد انشغل بنفس الفكرة، أن يمنع الحاجَّة زهرة من رؤية أبيه، تمدَّد على الأريكة وانتظر، ولم يَدُم انتظاره طويلًا؛ فقد كبس عليه النوم وتكوَّم كأنه رُكام مكدَّس.

٦

منذ أن علِم من رفيق أنه في بعض البلاد يستيقظ الناس في الرابعة صباحًا كي يذهبوا للعمل في المناجم، وسراج يحاول أن يفعل شيئًا، اكتشف في الدولاب منبِّهًا لم يَعُد أحدٌ يستعمله فأصلحه بنيةِ استخدامه، ولأنه ينام وحدَه في غرفته، فيمكنه أن يستخدم هذه الآلة على طريقته، في أول يوم، أثار جرس المنبِّه ضجيجًا ساد المنزل بأكمله، فسراج لم يعتَد قط على مثل هذا القطع العنيف للنوم، فترك المنبه يدقُّ بلا توقُّف.

تصوَّر أنه في كابوس، في هذا اليوم أحسَّ بأنَّ لديه حيويةً مدهشة، ولكن بعد بضع لحظات، لم يعرف ماذا يفعل، فنام مرةً أخرى، وعاد في اليوم التالي، وفي الأيام التالية راح يلفُّ المنبِّه بفوطة ليخنق ضجيج الجرس، ولكن هذه المحاولات ظلَّت دومًا غير مثمرة مثل المرة الأولى، هل كان رفيق يكذب عمدًا لإخافته، تنتاب سراج الآن شكوكٌ حول إمكانية الاستيقاظ صباحًا، هذا أمرٌ لا يمكن أن يتحمله سوى الرجال الأصحاء ذهنيًّا الذين يعملون في المناجم في مثل هذه الساعة المنحوسة قبل الفجر، ماذا يضطره أن يمتهن هذه المهنة المجنونة؟ لقد درس رفيق في مدرسة الهندسة، وكان عليه بلا شك أن يعرفها، ولكن معه لا يمكن أبدًا معرفةُ متى يسخر ومتى يقول الحقيقة، وعبْر هذه السخرية، يمكن التعرُّف على عالم معتوه يتبعه الناس، عالم يتكاثر فيه القتلة الدمويُّون.

وكي يشغل نفسَه، حاول سراج أن يجد حلًّا في محل أبو زيد، فهذا يجعل الوقت يمرُّ ولديه الإحساس أنه لن يبقى خاملًا للأبد، لقد راودَته أفكارٌ عديدة، ولكنه رماها كلها جانبًا، وجدها مألوفة، أو شديدة السهولة، أراد أن يجد شيئًا فريدًا في نوعه، يُثير دهشةَ أبو زيد، وأن يبيِّن له في نفس الوقت، أنه عضو في أسرةٍ بالغة الذكاء، والجاذبية، ولكن

هذا لم يحدث بعدُ، وسراج ليس على عجلة من أمره، فهو يفكِّر ببطء، وتأنٍّ، وهو واثق أنه سيتوصل إلى فكرة براقة.

ومنذ آخر مرة ذهب فيها إلى المصنع الذي تحت التأسيس لم يخرج سراج من المنزل، فيلزمه أن يشحذ همَّته، قبل أن يغامر في هجمة جديدة إلى الخارج، الآن، يحس أنه متآلف، وأنه في أحسن حال بعد أيام عديدة من النوم.

انتابَته الرغبة أن يذهب ليُلقيَ نظرةً على المصنع، بالتأكيد هو لا ينتظر كثيرًا أن يراه قد انتهى، ولكن هذا بالنسبة له نوعٌ من السلوى ليزورَ تلك الناحية التي عليه أن يعمل فيها، فقد أحسَّ فيها براحةٍ وبحيوية تسمحان له باستكمال الجو الأسري.

تمدَّد فوق سريره، راح ينظر من النافذة، وفيما وراءها كانت السماء زرقاء، بلا أيِّ أثر للسُّحُب، حيث تلمع الشمس بكل لهيبها، إنه يومٌ ربيعي، ربيع تشعُّ منه حرارة مميتة، وكم يحس سراج بالمتعة حين يفكِّر في نزهةٍ طويلة إلى المصنع، فكَّر في الطفل صاحب النبلة، وهو يتساءل هل يراه، انتابَته رغبة مجنونة أن يقابله؛ فالطفل قد يكون مفيدًا له، فلن يغفر لنفسه أن يتركه يرحل دون أن يسأله عن بعض التفاصيل حول سُبُل حياته في الصعلكة؛ فسراج يعتبره رحَّالة متميزًا. كان متعطِّشًا لسماعه يتحدَّث عن تَجواله الكثير في جميع أنحاء المدينة. بأي حماس يصطاد العصافير؛ فسراج لم يجد قط في أي شخص مثلَ هذه المشاعر المتدفِّقة، وكأن الطفل يمثِّل عالمًا له ثقلُه، فهو يدافع عن نفسه بكل وعي، وعليه أن يرى الكثير من الأشياء وأن يقترب من أشخاصٍ عديدين، وعد سراج نفسَه، إذا قابله مرة ثانية أن يسأله عن رأيه في إمكانية حدود الغضب والاحتدام، وستكون مهاراته في الإجابة بمثابة إنقاذ حقيقي بالنسبة له.

وبكل كسل، قام من السرير، وتوجَّه نحو الدولاب، فتحَه وارتدى صدرية صوفية حمراء، وحذاءه الكاوتشوك، ثم أخذ يرتدي ملابسه.

– هل ستخرج؟

انفتح الباب، استدار سراج، ورأى هدى، وقد بدا عليها الضيق، أغلقت الفتاة الباب بهدوء، ودخلت الغرفةَ على أطراف قدمَيها وكرَّرت لاهثة: هل ستخرج؟

قال سراج: نعم سأخرج.

قالت هدى: انتظرني، سأرتِّب الأطباق، وسنخرج معًا.

قال سراج: مستحيل؛ فورائي أمورٌ عاجلة، ولا أستطيع انتظارك. قالت هدى: ليس صحيحًا، الحقيقة أنك لا تودُّ الخروج معي، أنت لا تحبني.

٦

تكلَّمت بصوتٍ طفولي مليء بنبرات ساذجة، أثَّرت في سراج بعمق، هذا الحب الذي تشهده عليه هو عائق لمشاريعه في الهروب نحو حياة حقيقية، أراد أن يتركها تنتظر بهذا الوجه الطفولي العاشق العنيد، إنه ضعيف يريد النوم من جديد، فهو لا يستطيع أن يتحمَّل رؤيتها تعاني، قال بكلِّ ما به من رقَّة: لا طبعًا، أنا أحبك، وأنت تعرفين، فقط ليس لديَّ وقت، يجب أن أخرج حالًا.

بدَت حزينةً مقطبة الوجه، لم تُصدِّقه، تعرف أنه ليس وراءه أيُّ أمر عاجل، وأن رغبته في التصعلك تدفعه للخروج، قالت: من الأفضل أن تنام.

– لقد نمتُ بما فيه الكفاية، يجب أن أخرج، ألَا تفهمين؟

– ماذا ستفعل بالخارج؟ أخاف عليك لو خرجت.

– لستِ سوى فتاة صغيرة، لماذا تخافين؟ كل الناس يظلون نيامًا في منازلهم، أنت لا تعرفين شيئًا عن الحياة.

قالت: لكنك لست كالآخرين … أخاف عليك.

– أنت غبية … ماذا يمكن أن يحدث؟ هل تعرفين يا هدى أن هناك بلادًا يستيقظ فيها الناس في الرابعة صباحًا ليذهبوا للعمل في المناجم؟

– هذا أيضًا من اختراعك؟

– لا، لقد أخبرني رفيق.

قالت هدى: ليس ذلك صحيحًا، إنه بالتأكيد يكذب عليك.

قال سراج: هل تعتقدين ذلك؟ على كلٍّ، فالأمر بالغ الصعوبة، لقد حاولت ولم أستطِع.

– هل حاولتَ أن تستيقظ في الرابعة صباحًا؟ لماذا؟ لا توجد مناجم هنا؟

– أكَّد لي رفيق أنه ستكون هنا قريبًا، يجب أن أخرج.

قالت هدى: اسكت، أنت تخيفني، ألَا تريد أن تنتظرني؟

إنها تُحِس بشيء يربطها به، هي الفتاة الصغيرة، نوع من الحب الخاطئ المثير للمتاعب.

لقد قبلَت منه كلَّ شيء، وهي تتكبَّد من أجله الإهانات والشتائم، فهي تعرف أنه يريد مغادرةَ المنزل، تساءلت كيف تمنعه، سوف تطير من الفرحة لو صَحِبها معه.

اقتربت منه، والتصقَت به وضمَّته بين ذراعَيها، إنه طويل، يدفعها أن ترفع رأسها كي تنظر إليه، بدَت كأنها تتوسَّل برقة، بينما ارتسمت على سراج ابتسامة، قالت: داعِبني.

– ليس لديَّ وقت، وكما قلتُ لكِ يجب أن أخرج، ولا أريد أن أُتعب نفسي؛ فطريقي طويل.

وضمَّته بقوة إليها وهي تتوسَّل إليه: داعِبني.

وضع سراج ذراعَيه حول رقبتها وبدأ في تقبيل فمِها، أحس بها ترتجف، وفهِم أنه لن يتخلص منها إلا ببضع مداعبات، أحسَّ بلذةِ عِناقها وذهب ليجلس على السرير، فلحِقت به هدى، واحتكَّت به بحركات مثيرة، لمعت عيناها بمكر، انقلبت على ظهرها، وانتظرت ممتثلة، واقترب منها مهتاجًا، ابتسمت ملءَ شدقَيها، وهي تخفض أهدابها، وتقلَّص وجهها من الانتظار، ومرَّت لحظةٌ طويلة ظلَّت خلالها غيرَ قادرة على الحركة. رفع سراج فستانها، وكشف عن ساقيها السمراوين الرقيقتين، نظرت هدى إلى سراج، أحسَّت به يرتعد في أعماقه كطائر جريح، مرَّر سراج يدَه الرقيقة فوق ساقيها، حتى وصل إلى نقطةٍ حسَّاسة من جسدها فتراجع، أطلقت تنهيدةً خفيفة، تعلَّقت به بكل قوَّتها، أجبرته أن ينام إلى جوارها.

أمسك طرَف قدميها الذي تدفَّق عبَر فستانها، فتركته يفعل، بدت سعيدة متخابثة، استندَ رأس سراج على صدرها، أحسَّت به كأنه يكاد أن ينام، قالت: هل تعرف أنَّ جلال وعدني أن يعطيني خمسةَ قروش إذا كشفت له عن صدري؟

ارتدَّ سراج نحو الخلف، نظر إليها ببلهٍ، وقال: وعدَكِ بخمسة قروش! إنه يسخر منك، فهو لا يملك نقودًا.

قالت هدى: إذا كان معه، هل تصدِّق أنني سأفعل؟

قال سراج: لا أعرف، ربما يرغمك أن تفعلي.

قالت: إذا أجبرني، فلن يكون نفس الشيء، ثم إنه لن يحدث.

– لماذا؟ إنه لن يداعبَك رغمًا عنك.

قالت هدى: لا، لقد حاول، ولكنه شديدُ الكسل، إنَّه يحبُّ النومَ أكثر.

– لذلك أنا لا أفهم. لماذا يريد رؤيةَ ثدييك؟

قالت هدى: لا شكَّ أنَّ هذا يمنعه، يريد التسليةَ بين وقتٍ وآخر دون تعب، ألستَ غيورًا؟

ابتسم سراج، وهو ينظر إلى هدى: لستُ غيورًا.

سكتت هدى، وبدَت متعثِّرة، فهي تحب أن تراه غيورًا. قالت: الذي يجبرني دائمًا هو رفيق، لا أعرف ماذا أفعل كي أهربَ منه.

قال سراج: ألا تُحبِّين رفيق؟ إنه شاب رائع، هل تعرفين أنه يقضي وقتَه في السهر في صالة الطعام، كي يمنعَ الحاجَّة زهرة من رؤية أبي؟ فهو يطاردها منذ أيام، وسوف يخرُّ مريضًا بالتأكيد.

قالت هدى: أعرف، إنه لا يطارد الحاجَّة زهرة، بل يقضي أغلب وقته في مطاردتي أنا أيضًا.

قال سراج: هذا يعجبك، إنه رفيق، لماذا لا تحبينه؟

قالت هدى: أنا لا أحب سواك، وأنت شرير معي.

قال سراج: لست شريرًا، فقط أفكِّر في شيء آخر.

قالت هدى: فيمَ تفكر؟ يا الله! أنت أكثرُ جنونًا من الآخرين، أنا شديدة البؤس.

قال سراج: الآن، اذهبي، يجب أن أخرج، فقد تأخرت.

قالت هدى: لا تذهب بعيدًا.

وقامت من فوق السرير، ورتَّبت ملابسها، وخرجت من الغرفة على أطراف قدمَيها.

أغلق سراج سورَ الحديقة وسار في اتجاه الطريق معتلَّ المزاج، وأحسَّ بالمهانة، وراح يلعن نفسَه لامتثاله نزوة هدى، فهو ليست لديه الآن القوة اللازمة للذهاب إلى المصنع، يجب أن يؤجل هذه الزيارة إلى مرةً أخرى، وضع في حسابه كم أنَّ هذه الفتاة تُثقل عليه أكثرَ من النوم، فتعلُّقها به سوف يفسد محاولته من أجل حياةٍ عملية وحرة، إنها عقبةٌ أكثر من حُلم لن يتولَّد سوى في الهروب يومًا من منزل الأسرة، كيف يمكنه أن يتخلَّص منها؟ رغم أنه لا يزال طفلًا؛ فسراج يحسُّ نحوها بشفقة، إنها بائسة، وهو يعرف ذلك، وستكون أشدَّ بؤسًا عندما يرحل.

ابتعد سراج عن الطريق الرئيسي، وقرَّر أن يذهب لرؤية أبو زيد في حانوته، أراد أن يقدِّم لبائع الحرنكش بعضَ الأفكار القيمة التي يمكن أن تُعطيَه انطلاقةً حقيقية في تجارته التافهة وهكذا، فإنَّ بعد ظهيرته لن تكون فاشلة تمامًا، فالجو حارٌّ، وشبه خانق، راح سراج يتنفَّس بصعوبة، وأحسَّ أنه يكاد يفقد البصرَ من انعكاس الشمس التي تتفجر في كل مكان، وتبدو المنازل على جانبَي الطريق كأنها مدهونة بدهان يلمع في الضوء، مشى سراج بخُطًى مترنِّحة ولديه نيةُ المغامرة في منطقةٍ تغمرها أضواء البرق، مليئة بالعوائق الغير متوقَّعة، أحس بيده رطبة في أعماق جيوبه، فأخرجها ودلَّكها ببنطاله، ثم تابع طريقه، الذراعان متأرجحتان، والمخ خاوٍ والعينان تُحملقان في الأرض، والمارَّة نادرون في الشارع، فهذه ليست ساعة النزهة، وهو لا يريد أن يتكلم، ثم إنَّ الناس اعتادت النظر إليه بطريقة غريبة، إنهم يعرفون أسرته، ويبتسمون ببلاهة عند اقترابه، وفي كل مرة يحسُّ سراج بأنه يموت، فجأة رأى ميمي ينطلق من حارة، ويسرع نحوه، وعلى شفتيه ابتسامة بينما هو يُمسك كلبه سمسم، ذلك الحيوان المسكين، البليد والقذر، والذي لا يتركه أبدًا، قال ميمي: سلام عليكم، لم أرَكَ منذ زمن، هل أنت على ما يرام؟

ردَّ سراج: أنا لا أخرج كثيرًا، هل تتنزه؟ وكيف حال كلبك؟

قال ميمي: إنه حيوان قذر، إنه مصاب باللامبالاة، اسمع، أنا أودُّ أن أراك.

هتف سراج: ياه! فيمَ يتعلَّق الأمر؟

قال ميمي: أريد أن أكلمك، لقد حُمْت طيلةَ الأيام الأخيرة حول منزلك آملًا رؤيتك، لكنني لم أجد فرصة.

قال سراج: هل الأمر خطير؟

سكت ميمي، ثم نظر إلى سراج من طرفِ عينه، التي تشع برغبة مزعجة، وقال: آه، لا شيء بعينه، فقط كنت أريد رؤيتك.

قال سراج: أنا سعيد بلقائك.

سأل ميمي: حقًّا؟

ردَّ سراج: طبعًا، أحب كلبك كثيرًا.

قال ميمي: هل تسمح لي أن أصحبَك لحظة؟

ردَّ سراج: بكل سرور.

وراحا يمشيان في الظل، أحنَى ميمي رأسَه نحو كتفه، وابتسم في متعة، لم يكفَّ عن التحديق في سراج بطرَف عينه، إنه شابٌّ مراهق غريب يرتدي ملابسه على أحدثِ طراز، وبشكلٍ مريب، تبدو أهدابه الساحرة منتوفةً وعيناه سوَّدهما الكحل مما يعطي لنظراته إصرارًا غامضًا، سار بطريقةٍ غريبة، وهو يهز فخذيه بكل خفة، ومن وقتٍ لآخر، يُخرج من جيب سترته حَفنةً من لبِّ البطيخ المستوي، ويروح يقزقزها في اشتهاء شديد. سأل سراج: هل تريد لبًّا؟

قال سراج: شكرًا، أنا لا أحبه.

– أنت مخطئ، فهو لذيذ، للأسف، من الصعب أن نقزقز اللبَّ عندما لا نعرف كيف نتعامل معه.

قال سراج: لم أتمكن من فعل ذلك قط، في منزلنا، لا نأكله أبدًا.

قال ميمي: أجل فهو عملٌ صعب عليكم، وأنتم لا تجرءون بالمخاطرة فيه، فأنتم تحبون كلَّ ما يؤكل بسهولة، ولا تميلون إلى التعب.

قال سراج: لا، ببساطة لأنَّ أحدًا لا يُحبه.

قال ميمي: فهمت، لستُ في حاجة أن تشرح لي، لا تغضب لأنني قلت ذلك.

قال سراج: لست غاضبًا.

قال ميمي: خسارة، أنا ممتنٌّ لمقابلتك.

ورمش بأهدابه وابتسم، له شفتان جميلتان وحمراوان، وممتلئتان قليلًا، أما سراج فقد انزعج كثيرًا، لم يشرح له ميمي حتى الآن لماذا أراد أن يراه، إنه يعرفه جيدًا ويخمِّن السبب.

أحس بالسعادة وهو يقطع الصمت: هل ما زلتَ ترسم؟

قال ميمي: نعم، أعتقد أنني رسمت بعض اللوحات الغريبة، أتريد أن تشتريَها؟ فأنا لم أَبِعْها بعدُ.

كان ميمي تلميذًا في مدرسة الفنون الجميلة، يدرس الرسمَ ويتصرف كفنان كبير، ولم يرَ أحدٌ لوحاته قط، ولكنه يزعم أنها أعمال عبقرية، وأسرته تُصدق كلامه، أما بالنسبة لأصدقائه العديدين فإنهم يغتابونه، بكل وضوح، فقد نال شهرة في الحي بغرابة أطواره ولعاداته الغريبة، سأل سراج: هل عُرضت عليك أموال كثيرة؟

قال ميمي: بالتأكيد، لكنني لا أهتم بالنقود، أنا أرسم فقط من أجل الفن.

قال سراج: جميل، لعلك سعيد.

قال ميمي: الفن يهمني؛ لذا أهتم كثيرًا بأسرتك، فأنت أيضًا في تكوينك فنان.

قال سراج: لا أفهم، لسنا فنانين، أنت مخطئ، فنحن لم نفعل شيئًا.

قال ميمي: هذا هو الأمر، هذا الفراغ، في رأيي، فنٌّ راقٍ وجذاب.

قال سراج: أنت رقيق للغاية، وأؤكد أنك مخطئ، لسنا فنانين.

سكت ميمي؛ فهو سعيد لأنه عبَّر عن نفسه بهذه المشاعر، وحسب قراءاته الغريبة، فإنه يحمل مفهومًا ضبابيًّا حول علم الجمال المعاصر؛ فسلوكه الغريب له أيضًا نفس الجذور ويؤمن تمامًا أنَّ الفنان الحقيقي يجب أن يكون شاذًّا بطبيعته، إزاء صديق يسأله إذا كان يؤمن بفلسفة كاتب معاصر حديث.

أجاب ميمي: لماذا تريد أن أفكِّر فيه، إنه رجلٌ متزوج؟

أسعدَته هذه الإجابة بشدة، فهو يجب أن يتقرب لسراج، لكن سراج لم يسأله شيئًا.

لا يهم، سيكون هذا في مرة أخرى، لَعِق شفتَيه بلسانه وابتسم، يبدو عليه أنه يهب نفسَه لمؤامرات دنيئة.

فجأة حدث شيءٌ ما؛ فقد راح سمسم يتشمم كلبةً دلفت من أحدِ الأبواب، سحبه ميمي بغتةً من سلسلته، وأعاد إليه سمسم المسكين الذي نبح بصوتٍ مخنوق: تعالَ هنا، أيها الحيوان القذر، ألستَ خجولًا، إنها أنثى.

ربَّتَ سمسم تحت ساقَي ميمي وقد بدا عليه الارتباك والحياء، أما الكلبة الساحرة فقد ظلَّت في نفس المكان، نظرت إلى المنظر بدهشة بادية، انحنى ميمي، وأمسك زلطة وألقاها ناحيتها، فقفزت الكلبة وهربت دون أن تسأل عن السبب، نظر إليها سمسم وهي ترحِّب وقد أصابه الندم، وعانى من موقفه غير المنطقي، إنه كلب نحيف أحمر الشعر وعينان محوطتان بالفسوق، لا يتعمَّد أن يكون شاذًّا، ويخشى أن يغضب سيده، يشده ميمي بقسوة في كل مرة يحاول أن يتقرب فيها من الأنثى، بينما استسلم سمسم إلى الكلبة، ومال إلى مسايرة غريزته التي بدت له بمثابة خطايا مأسوية، فراح ميمي يوجِّه له الضربات والشتائم.

صرخ ميمي، وهو ينهَى كلبه بوقاحةٍ بادية: يا ابن العاهرة، سوف أقتلك.

قال سراج: ما يُدهشني، هو الطريقة التي تعاملت بها لتوِّك مع أنثى.

قال ميمي: أنا أعرفهن، تلك الحيوانات القذرة، إنها قذرة ويملؤها القمل.

قال سراج: هذا أمرٌ مدهش، وليس لديَّ شيء أُخمِّنه.

سارَا لحظة، دون أن يتكلَّما، كانَا تقريبًا وحدَهما على الطريق، ومن وقتٍ لآخر يستدير ميمي، ويُلقي خلفه نظرةً خلسةً، بدا كأنه ينتظر قدومَ أحد، دسَّ يدَه في جيبه، ثم سحب حَفنة أخرى من لب البطيخ، وراح يقزقزها، واحدةً إثر واحدة، فصدر عنه صوتٌ جافٌّ أغضب سراج ومنعه من النُّعاس، هزَّ رأسه، ونظر أمامه، فجأةً ظهرت عربة حنطور على الطريق، اقتربت ببطء كأنه في حُلم، يقودها حوذيٌّ يبدو عليه الغضب، ضرب الجواد بحركةٍ جنونية، وفي داخل العربة الحنطور جلست امرأة متكئة على فخذَيها، امرأة ذات أهمية كبرى، كأنها كتلة من اللحم المعبَّق بالدهن، رفعت الريحُ تنورتَها فكشفت عن جسدها البدين بطريقةٍ شديدة الابتذال، فأطلق الشابَّان الصفيرَ المتقطع. قال ميمي: يا لَه من أمرٍ مرعب! هل رأيت؟

لم يردَّ سراج، فعليه أن يُسرع إلى محل أبو زيد، فلا شكَّ أنَّ وجود ميمي يُشتِّت فكره، خاصةً أنه لا يستطيع أن يتحمَّل صوتَ ميمي الناعم الرخو، يتصرَّف كأنه سُكَّر مذاب، أحسَّ سراج بأنه واقع في شَرَك، انتابَته أحاسيسُ غريبة في جسده، وأراد أن يسترخيَ على الطريق وينام.

لم ينتبه ميمي إليه؛ فقد تملَّكه إحساسٌ ضخم بالعظمة، وأصابه القلق، فهو يلتفت حوله في كل لحظة، يبدو أنه ينتظر شيئًا ما، فجأةً بدا كأنه تخفَّف عندما رأى رجلًا يتوقَّف عند حانوت الدخاخني، إنه رجل في الأربعينيات، مبروم الشارب، ويضع خواتمَ ضخمةً في

أصابعه، وقد مال طربوشه المنتصِب على أُذُنه اليمنى، يُمسك في يده عصًا، ألقى ميمي نظرةً مستترة، ثم أشعل سيجارة ونفث الدخان بكل براءة، ابتسم ميمي، واستدار نحو سراج، ومرَّر ذراعه تحت صدره، وقال: تبدو مشغولًا، هل أنت عاشق؟

قال سراج: لستُ عاشقًا.

ابتسم ميمي وقال وقد بدَت عليه النشوة: آه من الحب، لا أستطيع أن أعيش بدون حب.

سكت سراج، وأكمل ميمي بعد قليل: أخبرني كيف حال أخيك رفيق؟

ردَّ سراج: على ما يرام.

كان ميمي زميل دراسة لرفيق، وهو يكنُّ له دائمًا إعجابًا، ويحب أساليبه الجافة، وبحة صوته، وهذا الشحوب لرجلٍ حسي يُثير خياله، وللأسف، فإنَّ رفيق يردُّ دائمًا على صديقه ببرود جاف وازدراء، ويشعر ميمي في كل مرة بأنه مجروح، ولا يميل أن تتطوَّر علاقتهما.

ورغم كل شيء فهو يبدو سعيدًا عندما يراه، ويأتلف بحضوره، ولكن منذ قرَّر رفيق أن يحبس نفسَه في المنزل، أصابت ميمي خيبةُ الحبيب المهجور، في الحقيقة، فإنَّ كل هذا الحديث مع سراج لم يكن له أيُّ هدف سوى أن يعرف أخبار أخيه.

قال ميمي: لماذا لا يخرج دائمًا؟

قال سراج: إنه لا يحب الناس، يفضِّل البقاءَ في المنزل.

قال ميمي: إنه يكرهني؛ ففي كل مرة يراني، وهذا نادرٌ الآن، فإنه يتجنَّبني، ماذا فعلت له كي يكرهني؟ هل تريد يا عزيزي سراج أن تُسديَ لي خدمة؟

قال سراج: بكل سرور، ما هي؟

– حسنًا أريدك أن تسأل رفيق لماذا لا يحبني، فهذا أمرٌ هام بالنسبة لي، فأنا متمسك دومًا بصداقته، هل ستُبلغه بهذا؟

قال سراج: لن أنسى ذلك.

استدار ميمي، وألقى نظرةً خلفه، نحو الرجل ذي الشارب، والخواتم الضخمة الذي كان يتبعهما من بعيد، وهو يداعبه، اقترب ميمي من سراج وهمس في أُذُنه: أعتذر كثيرًا، ولكني مضطرٌّ أن أتركك، فلديَّ موعد.

بدا وهو يقول هذه الكلمات كأنه يبوح لسراج بسرٍّ دفين عن ظروفه، ثم قال قبل أن يبتعد: كم أنا سعيد أن أراك، السلام عليكم.

وأمام حانوت أبو زيد، توقَّفت مجموعةٌ من الأطفال، إنهم من مدارس قريبة، صبيان وبنات، يحملون كتب المدرسة بين أذرعهم ويختارون من الحلوى وهم يمرحون، راح أبو زيد يقدِّم لهم خدماته بكل اللامبالاة، بدا أقلَّ فزعًا بهؤلاء الزبائن المزعجين، انتظر سراج حتى انفضُّوا جميعًا، ثم تقدَّم نحو أبو زيد، وقال: السلام عليك، أيها التاجر الماهر.

– آه، هانت يا بني، يا الله، وفِّر سخريتك.

مال سراج نحو أبو زيد تاركًا النوم يسيطر عليه، ونظر إليه أبو زيد وهو ينام وأغلق له عينَيه، وخلفهما، كان الباعة الجائلون الماكرون، يتملَّكهم الجنون من الحانوت الخاوي.

٧

استيقظ العجوز حافظ منزعجًا، تهزُّه الرَّعشة ويُغرق جسدَه عَرقٌ بارد؛ فقد حلَم لتوِّه حُلمًا سيئًا، حُلمًا وعْرًا لا ينتهي، وبحركة محمومة رفع المنديل الذي يَعصِب عينَيه مرتعدًا تحت الغطاء وقد انتابه الخوف، حاول أن يتذكَّر صُوَر حُلمه، ولكن كل شيء تداخل في ذاكرته، فهو لم يحتفظ في داخله سوى بذكرى مزعجة، داعب شعوره بالشيخوخة وما لبِث أن هدأ، وراح ينظر حوله.

فالغرفة غارقة في ظلام دامس ينِمُّ عن زمن غير حقيقي، جاهد العجوز حافظ أن يتعرَّف على الوقت وأن يحدِّد شيئًا ما، جالَت نظراتُه في الغرفة، وتوقَّفَت فوق طبقٍ موضوعٍ على المائدة، وتذكَّر أنه تناول غداءه، إنه الآن بعد الظهيرة، وتجاوز القيلولة، رمى بمنديله الذي كان يلتفُّ تمامًا حول رأسه، والذي عليه أن يحميَه من ضوء النهار كي يستطيعَ أن ينام مرةً أخرى.

جلس فوق سريره، وراح يفكر، كالعادة فإنَّ أفكاره تبدو خاليةً من كل المشاعر، فمنذ بعض الوقت، تنتابه أفكارٌ غاضبة، ويمتلكه قلقٌ شديد، هذا الزواج الذي قرَّره، عند أفول حياته، يشغله بكل الموازين، إنها رغبةٌ في شباب جديد، وفي نفس الوقت نوعٌ من السُّلطة. الاجتياح الأخير على رغبته الخابية، فروحه غير الاجتماعية قد امتلأت بكافة أنواع النزوات؛ لذا فهدفه الأساسي أن يعارض مَن يحوطونه، فمنذ سنواتٍ لم يقدِّم برهانًا حقيقيًّا عن قسوته السيئة، وبدأت أسرته تنساه؛ ولذا فهو يرغب قبل أن يموت أن يترك بقوة طغيانه أثرًا لا يُمحَى.

ظلَّ العجوز حافظ ينتظر منذ أيام، وبصبر نافذ، حضورَ الحاجَّة زهرة، لقد وعدَته أن تهتمَّ به، إنها خاطبةٌ مشهورة تجعلها مكاسبها الكبيرة شديدةَ المثابرة، ومن هذه الناحية،

فالأمر لا يهم العجوز حافظ، ولكنه يهتم بشيء آخر، توقَّف فكره، أعار أُذُنه إلى صمت المنزل، لم يسمع أيَّ صوت قادم من الدور الأرضي، فالصمت يلفُّ كلَّ مكان ولا يتغيَّر، خمَّن أنهم نيامٌ جميعًا، فكَّر حافظ في أبنائه بمرارة؛ فهو لم يرَهم منذ فترة طويلة ويحدُث أحيانًا أن يظلَّ شهورًا دون أن يراهم، لكنه يعرف من العم مصطفى كلَّ ما يُحاك ضده، فهذا الزواج لا يعجبهم ويعرف أنَّ رفيق قرَّر قيادةَ التمرُّد، وأنه أقسم أن يقتل الحاجَّة زهرة، لقد منحه الكثير من الحرية، إنهم يتصورون الآن أنَّ كل شيء مباح، لكنه سوف يحطِّمهم، وسيبيِّن لهم أنه سيد المنزل.

للأسف، فهذه المعارضة التي يواجهها من أطفاله لا تمثِّل بالنسبة له أيَّ أهمية، لكن العاهة الثقيلة التي يعاني منها تشغَله كثيرًا، هذه العاهة يعتبرها العجوز حافظ العقبةَ الوحيدة أمام زواجه، وهو لا يستطيع أن يفكِّر فيه دون أن يرى حُلمه في الزواج المتأخر ينهار فجأة، أبعد الغطاء، ورفع قميص نومه وفحص أسفل بطنه بعين قلقة «أليطة» كبيرة تبرز مثل تلٍّ صغير بين ساقَيه الضامرتين، إنه شيء حقيقي مرعب، في كل مرة ينظر العجوز حافظ إلى هذه «الأليطة»، يندهش من منظرها، ومع كل يوم جديد فإنها تأخذ شكلًا مغايرًا، ويحزن العجوز حافظ من هذا الاكتشاف، ويتساءل بقلقٍ كيف يمكنه أن يقدِّم نفسه إلى عروسه الشابة بمثل هذه الكارثة.

مدَّ يدَه المرتبكة ولمس بكل حذرٍ الكتلةَ المتورمة الجامدة، ثم بدأ في جمْعها على الطرَف ببطء متعمَّد، نظر العجوز إلى هذا الكيان الضخم بين ساقَيه آملًا أن يراه مندملًا، ولكنه على العكس يبدو وكأن حجمه قد كبُر بين يدَيه، إنه شيء مثير للضحك والسخرية، وطوال دقائق راح ينادي هدى، لم يردَّ عليه أحد، أمسك علبةَ السجائر الموضوعة تحت الوسادة، فسحب واحدةً وأشعلها، ثم نادى من جديد، هذه المرة سمِع خطوات هدى وهي تصعد السُّلم جارية.

– ألَا تسمعين عندما أناديك؟

راحَت هدى تلهث قليلًا، فهي دائمًا ما يُصيبها خوفٌ عندما تدخل غرفة العجوز، تحسُّ بنوع من القلق الطبيعي ورغبة في التقيُّؤ، قالت: لقد صعدتُ لتوِّي.

أخفضَت رأسها في حياء، فقد تناثر شَعرها تحت منديل قِرمزي مطرَّز بأصداف كبيرة بيضاء، نظرت إلى العجوز من أسفل أهدابها، وانتظرت أوامره، فهو يطلب أحيانًا أشياءَ مرعبة، وهي تخاف أن يكشف لها عن «الأليطة»، ودائمًا ما يكشف لها العجوز حافظ عن

عاهته ببساطةٍ كي يحكمَ على تطوُّر الأمور، شجَّعه الصمت الذي ألكم هدى، لكنه هذه المرة لم يفعل شيئًا، تحرَّك في سريره وزمجر: افتحي النافذة.

توجَّهت هدى إلى النافذة وفتحَتها، فانسال بعد الظهيرة إلى الغرفة، وجعل مظهرَ الأشياء كأنها ميتة، إنها غرفةٌ واسعة مليئة بأثاثٍ ثقيل، باهت ومليء بالغبار، أحس العجوز بأنه يغرق في دائرةٍ مسرفة من الضوء، رمش بعينَيه واستدار نحو الحائط: أخبريني يا فتاة، ألم تأتِ الحاجَّة زهرة؟

قالت هدى: لا، ليس بعدُ.

– هل أنتِ متأكِّدة حيالَ ذلك؟

قالت: لا، أنا متأكدة أنني لم أرَها.

استدار ونظر إليها عبْر أهدابه: أنتِ تكذبين، يا بنت الكلبة، أعرف أن الأولاد يمنعونك أن تجعليها تصعد.

قالت هدى: ليس صحيحًا، لم يَقُل لي أحد، سوف أجعلها تصعد بمجرد وصولها.

– اسمعي يا ناكرة الجميل، لا تنسَي أنني ربُّ هذا البيت، ولن تتلقَّي أوامرَ من أحد عَداي.

قالت هدى: نعم يا سيدي، سأفعل ما تريد.

– وإلا طردتُكِ من هنا، فأنا أُشفق عليك فقط من أجل أمِّك فلا تحاولي خيانتي، أما بالنسبة للأولاد فسوف أتكفَّل بتعليمهم كيف يتصرفون، سوف أُريهم.

ومرَّر يدَه على ذقنه، وتحسَّس شَعر لحيته الخشن.

– الآن ... جهِّزيني كي أحلق ذقني.

اختفت هدى وعادت بإناء مليء بالماء ووضعَته على المائدة. غادر العجوز سريرَه، وترجَّل مرتجفًا نحو المقعد الكبير، القريب من النافذة، إنه نحيف بشكلٍ ملحوظ، ولذا راح قميص نومه يتطاير حوله، تقدَّم وهو يلتوي بساقَيه المقوَّستَين وهو يحمل «الأليطة» الثقيلة.

انغرس في المقعد، وألقى رأسه للخلف ... وانتظر ... بدأت هدى في دهن وجهه بالصابون بينما أغلق العجوز حافظ عينَيه راضيًا، وهو يشعر بلذةٍ حسية بهذا الإنعاش على وجهه، ذلك الوجهِ ذي التجاعيد الحادة الذي يقطعه شاربٌ أصفر الأطراف من أثرِ دخان السجائر، تجنَّبت هدى أن تمسَّ وجه العجوز، وكأنه كعكة هشة، بينما ارتفعت أنفاسه، جاهدَت هدى، وهي تخشى أن يُغمى عليها، ألا تقترب منه، سألها: ماذا يفعل الأولاد؟

قالت هدى: لا يفعلون شيئًا، إنهم نيام.

قال العجوز حافظ: هذا هو كل ما يعرفون فِعله، يا الله، إنهم يخيِّبون أملي، هل يخرج سراج كثيرًا؟

قالت هدى: لقد خرج مرةً أو اثنتين.

– هذا الولد مجنون، عمَّ يبحث في الخارج؟

يُكنُّ العجوز حافظ لأصغر أبنائه مشاعرَ خاصة، فهذا الصبي يشبهه في أنه مجنون بشيطان المغامرة، وهو لا يعرف ماذا يفعل ليُحيدَه عن طريق الخطر الذي يتوه فيه، أحسَّ العجوز حافظ بأنه مسئول عن المرارة التي يفتقدها كي يضربه لو أصرَّ على المشي قُدُمًا في هذا الطريق.

لقد وفَّر له كلَّ سبل الراحة، وها هو يهرب من المنزل وقد انتابَته فكرةٌ شيطانية بأن يبحث عن عمل، بالتأكيد، هذا الجيل غيرُ واعٍ وعابث، فكَّر أنه يجب أن يُدير معه حوارًا جادًّا، وأن يكشف له أنَّ هذه الجرأة ليست سوى لعبة خرقاء عميقة، فالعجوز حافظ لا يريد لأحد أبنائه أن يُشرَّد في الشوارع، فيرمي بذلك شرفَ العائلة في الوحل، وقال: أخبري سراج أنني لا أريده أن يخرج، سوف يقتل هذا الطفل نفسه يومًا.

انتهت هدى من حلاقة ذقن العجوز حافظ عندما امتثل العم مصطفى أمام أخيه، فهو يقيم في الغرفة المجاورة، قال بابتسامةٍ باهتة: جئتُ أطلب سيجارة.

قال العجوز حافظ مزمجرًا: لقد أخذتَ كلَّ سجائري أنت والأطفال، إنها على السرير، فخُذ منها.

اقترب العم مصطفى من السرير، وأمسك سيجارة وأشعلها، إنها سيجارةٌ عادية أخذ العم مصطفى يدخِّنها بكل أنَفٍ وفتور، تنهَّد وهو يتذكَّر السجائر الفخمة التي كان يدخنها في زمن ثرائه، قال العجوز حافظ: أرجوك، كفَّ عن التنهُّد، ماذا أصابك لكل هذا البؤس؟ أليس لديك كلُّ ما تتمنَّاه؟ كان العجوز حافظ لا يُكن لأخيه مصطفى سوى الاحتقار بعد أن بدَّد نصيبه من الميراث مع النساء في الزمن الرديء، وبعد الكارثة، وافق أن يسكن عنده، كنوع من العاطفة الأخوية، وهو يشعر بدنو أجله؛ لأن العم مصطفى، منذ فترة وجيزة يبدو دائمًا صلفًا معه، إنه الشخص الوحيد الذي يحترمه، وهو لا يُخفي أبدًا أمامه أنه يعتبره برجوازيًّا ورعًا، بخيلًا، وحقيرًا، ولم يغفر له العجوز حافظ هذا الموقف الجارح، وهو الآن ينتقم منه، قال العجوز: أريد أن أتكلَّم معك.

جلس العم مصطفى عند طرف السرير، وراح يدخِّن سيجارته، وقد بدا بائسًا لدرجةٍ مخيفة، قال: أسمعك.

أكمل العجوز: حسنًا، أنت تعرف قراري بالزواج.

قال العم مصطفى: إنه قرار سعيد، من الأفضل أن تهتمَّ بك امرأة. اسمح لي أن أُهنِّئك.

– سوف تُهنِّئني فيما بعد، الآن، سأُبلغك بكلِّ ما قلته للأولاد، فلا تتدخَّل في هذا الأمر، أعتقد أنك لست موافقًا، هذا جحودٌ أسود.

قال العم مصطفى: أنا، على العكس، سأدافع عنك، ولكن مع رفيقٍ لا أستطيع شيئًا، فهو يريد أن يقتلني.

– هذا شيء سخيف، هل ستترك نفسك فريسةً لطفل؟ رفيق ولدٌ سيِّئ، وسوف أربِّيه.

– أنت على حق.

– أنا دائمًا على حق، على كل حال، هذا الزواج سيتم رغمًا عن الجميع، لقد كلَّفت الحاجَّة زهرة أن تبحث لي عن شابة من عائلة محترمة، تسكن في مكان قريب، أريد أن أتزوجَ في أقرب وقت ممكن.

وسكتَ العم مصطفى، إنه يعرف عنادَ أخيه، وخاصة حكايةَ الماعز، إنها حكاية معروفة في كل الأسرة، وأيضًا من المعارف البعيدين، إنها حكاية ساخرة تكشف سوءَ النية، وتناقُض العجوز حافظ؛ فقد كان يتنزَّه يومًا في أرضه، يصحبه ابنُ عمٍّ له، وكان العجوز حافظ آنذاك في الخمسين من عمره، توقَّف وسط الحقل، ورأى شيئًا أسودَ في قمَّة أرضه، كان الشيء بعيدًا جدًّا، ولم يستطِع أحدهما أن يحدِّد بالضبط ماذا يكون، قال العجوز فجأةً: «إنها ماعز.» ردَّ ابن العم: «إنها حِدَأة»، واعتبره العجوز أعمى وأصرَّ على رأيه. وبعد لحظة وبينما هو يتكلم طار الشيء في الهواء واختفى في الأفق، صاح ابن العم منتصرًا: هل رأيت؟ لقد كانت حِدَأة. ردَّ العجوز حافظ يكشف قلقَه: «لقد كانت ماعزًا، حتى لو طارت.» وأمام هذا الضياع، ابتعد ابن العم ساخطًا، وظل غاضبًا منه لمدة طويلة.

أكمل العجوز حافظ: وأنت، ما رأيك في هذا الزواج؟

قال العم مصطفى: إنها فكرة ممتازة، بشرفي، أنا أحسدك.

وانتابه إحساسٌ بالخزي المثير للإشفاق، هو نفسه لم يَسْلم من هذا التحوُّل، فهو لم يعِش في هذا المنزل، إنه يعاني من جاذبية هذا البيت؛ فهو لم يفكر قط أنَّ نقوده يمكنها أن تتبدَّد، وأن يُصبح مفلسًا تمامًا، لقد عاش طويلًا بعد إفلاسه في انتظار معجزة، ولم يصدِّق أنه لم يَعُد يملك أيَّ نقود.

الآن، لا يزال ينتظر المعجزة، طالما أنه يمكن للمعجزة أن تحدث، في هذه الغرفة القذرة مع هذا العجوز العاجز الجالس فوق مقعده، المتأرجح، الذي يريد أن يتزوج من جديد،

نظر العمُّ مصطفى إلى أخيه، واعتقد للحظة أنه يحلُم، وأنَّ كل هذا الجو الفاسد ليس سوى فخٍّ مدبَّر له كي ينام، فجأةً أحسَّ بأصابعه تشتعل؛ فقد احترقت السيجارة تمامًا، أطفأها في المنضدة الموضوعة على المائدة، وتنهَّد لاهثًا، وكأنه يؤكِّد لنفسه حقيقةَ إفلاسه.

تململ العجوز حافظ في مقعده، وبرم شاربه وهو يتأمل: لم تُخبرني أنَّ الأطفال يتآمرون من جديد.

– إنهم لا يتآمرون، كلُّ ما هناك أنَّ رفيق يقيم في صالة الطعام، يتمدَّد على الأريكة، ينتظر قدومَ الحاجَّة زهرة، أعتقد أنه لن يلتزم طويلًا بهذا النظام.

– يا للصبي الملعون، وجلًا، ماذا تفعل؟

– لم يفعل شيئًا، إنه ينام دومًا، لقد كلَّف رفيق بالمهمة كلها، واستراح منها، إنه صبي مدهش.

– لماذا تقول هذا؟

– لا لشيء، فقط أرى أنه من الغريب أن ينام هكذا طيلة وقته.

– لا شيء غريب، صدِّقني، ماذا تريده أن يفعل؟ على الأقل أنه هادئ، ولا يُزعج أحدًا.

دعَكَ العجوز أهدابه؛ فأولاده يُولونَه أهميةً وهو لا يعرف كيف يُعيدهم إلى رشدهم دون أن يسبِّبوا له إزعاجًا، أكمل: يجب أن تُكلِّم جلال، إنه الكبير، وإخوته سيسمعون كلامه.

قال العمُّ مصطفى مندهشًا: أكلِّم جلال! ألَا تعرف ماذا قلت؟ إنه لا يقوم من سريره إلا ليأكل، وهو لا يفعل ذلك كثيرًا، هل تعرف ماذا جرؤ أن يطلب مني ذات مرة؟ إنه عارٌ حقيقي، لقد طلب مني أن أُحضر له «القصرية» في غرفته، لأنه يريد أن يتبول دون أن تكون له الرغبة في أن يُزعج نفسَه، إنها أساليب همجية، وأنا لا أحب هذا، كلِّمه بنفسك.

– إنه أحمق، أخبرْه أن يصعد ليراني، أتساءل عن فائدتك، فأنت لا يمكنك أن تُسديَ لي أي خدمة عندما أكون في حاجة إلى مساعدة.

– أعتقد أنك لست معتادًا على الاختلاط، هؤلاء الأولاد لديهم روح جهنمية وسيصيبونني بالجنون.

– ولا يهمك؛ فرجل مثلك يجب أن يستخدم كلَّ ما لديه من سلطة.

أحسَّ العمُّ مصطفى في هذا التلميح بروح السخرية منه، رأى نفسَه محبوسًا في دائرة من الدناءات، وهذه البهجة المقنعة البائسة، وهذا الأثاث القديم، كلُّ هذه الرفاهية الحقيرة والقذرة ترفع من معنوياته، وهذا النوم الخطِر الذي يسيطر على الجميع يبدو كأنه نهرٌ

عريض، نظر إلى أخيه، هذا العجوز الذي يحلُم بالزواج رغم الأليطة الكبيرة التي تبرُز عبْر قميص النوم، بين ساقَيه المنفرجتَين، إنه مندهش من هذه الأليطة، تُذكِّره بصورة قديمة، تحمل نفس الصفات، الساحرة والمهيبة.

إنها صورة يعود تاريخها إلى سنواتٍ عديدة، صورة ضائعة في ثنايا ذاكرته، حدث هذا في شقة العزوبية التي كان يسكنها في المدينة؛ فالمرأة التي كانت تأتي كلَّ أسبوع لتغسل له، كانت تقوم بالغسيل في الحمَّام، العمُّ مصطفى لا يذكر ملامحها، لم يكن وجهها معبِّرًا، إنه نوع من الوجوه الممسوحة دائمًا في ذاكرة البشر، كانت صامتةً دائمًا وتقضي حاجتها بشكلٍ ملول وفي امتثال، استغرق العمُّ مصطفى وقتًا طويلًا إلى أن تنبَّه إلى حقيقة وجودها، وكأن المرأة كانت تتحرك في وجودٍ عارض، عند حدود الحُلم. وذات يوم تولَّد فيه شيء مخيف، ونام معها، حدَث هذا مرةً واحدة فقط، ولم يفكر العمُّ مصطفى إلا بعد عدة أشهر، حيث لاحظ أن بطن المرأة قد انتفخَ، فأصابه القلق وتساءل إذا كان هو المسئول، وفي كل زيارة للمرأة، كان البطن يكبُر بشكلٍ واضح، مما يُثير القلق، واحتفظت المرأة دائمًا بسلوكها كحيوان لا ينفعل، ولم تنطِق بكلمة واحدة، مما أصاب العمَّ مصطفى بحالة هذيان ومرض، وفي كل أسبوع كان يرصد هذا البطن الفاجر، الذي يبدو وكأنه يحتقره في انتفاخه، وانتابه الجنون حين اختفَت المرأة يومًا ولم تَعُد ثانية.

خرج من هذه الحالة المحمومة من خموله، وسأل أخاه: كيف حال الأليطة؟

ردَّ العجوز حافظ: أحمد الله، إنها تتحسَّن.

قال العمُ مصطفى: يجب أن تعتنيَ بنفسك، فهذا يمكن أن يُضايقَك كثيرًا.

ووضع العجوز يدَه بين ساقَيه وداعب الورم الظاهر كأنه يداعب طفلًا: ألا تجد أن حجمها يقلُّ؟

قال العمُّ مصطفى: إنها لا تكاد تُرى بالعين.

أراد أن يُسعد أخاه؛ فموقفه كمتطفل تطلَّب منه أن يكون مجاملًا. والعجوز يعرف أنه يكذب، ولكن هذا الكذب يبدو رائعًا، سأل: حقًّا؟

– بشرفي، أنا لا أسخر منك؟ منذ بضعة أيام كانت مخيفة، أما الآن فتكاد لا تراها.

– يسمع منك ربنا، أريد أن ينتهيَ هذا تمامًا هل تعتقد أنها ستكون عقبة أمام زواجي؟

– يا لَه من غباء، ستكون امرأتك سعيدة أن تعتنيَ بها، بل ستكون فخورة بهذه الأليطة.

وابتسم العجوز حافظ مغتبطًا؛ ففصاحة هذه الدعابة تبدو كأنها غير ملموسة، أشعل سيجارة، وقدَّم واحدةً أخرى لأخيه، وراحَا يُدخِّنان في صمت.

٨

لم تتعجَّل هدى العودةَ إلى أمِّها، هذا المساء، فقد انتابَتها الرغبة لزيارة إمتثال؛ فمنذ أن أرسلها رفيق إلى منزلها أقامت هدى علاقاتٍ حميمة مع العاهرة، وهي تحب أن تلعب مع ابن إمتثال، وتضعه على ركبتها عندما يكون نائمًا؛ فقد كان الطفل جميلًا، أحسَّت هدى نحوه بعاطفة أمومة، وتبدو العاهرة دائمًا حبوبة، وهي تستقبل هدى وتقدِّم لها كلَّ مرة العصائرَ ومختلف أنواع الحلوى.

ولأن إمتثال عاهرة، فإنَّ هدى لم تفهم قط ماذا يعني هذا؟ حيث إنَّ لديها فكرةً مشوشة، ولكن هذه الفكرة لم تُفسد علاقتها بها؛ فبالنسبة لها، يمكنها أن تكلمها عن سراج؛ لأن العاهرة تسمعها برقةٍ بالغة، يسود الآن فيما بينهما نوعٌ من الاستلطاف، وليس هناك شخص آخر كي تحكيَ له هدى مأساتها حول المؤامرة الأخيرة للعجوز حافظ، وعن حاشيته المزعجة ومفاجأتها، إنه عبء بالغ الثِّقل عليها، تريد أن تعلم إمتثال هذه الأحداث الحسية، فهذا يخفِّف مما في قلبها.

تأخَّر الليل في الهبوط، وفي اكفهرار الغروب تُومض المرايا العاكسة بضَعف، كأنها نجوم خابية، وعلى الطريق راح بعضُ العابرين يجرِّبون تكاسلهم قبل الذهاب للنوم، وبدَت البيوت بشكلها الكثيف الداكن، وعلى بعض الأركان هناك فتحاتٌ واسعة تُطل على الحقول، ويُشاهد الريف النائم في قفصه، والحزن يخيم للأبد في الأفق، سارت هدى بخُطًى واثقة.

كآنسة جادة لا تخلو من جاذبية، وقد لفَّت شعرها بوشاحٍ أزرق، وحملت حقيبةً كبيرة بين يدَيها، راحَت تضرب على فخذها، هذه الحقيبة البالغة الأناقة، إنها هديةٌ من إمتثال، وكم تشعر هدى بالفخر وهي تحملها، فهي، في أعماقها، تمثِّل جانبًا من بنات جنسها؛ ولذا فهي تتصرَّف بطريقةٍ مسلية وساذجة.

يقع منزل إمتثال على طرفِ تلة، وبعده ليس هناك سوى فيلاتٍ تتناثر على طول الطريق وتخشى هدى أن تعبر الأمتار الأخيرة التي تفصلها، فهي تُصاب بخوف طبيعي، جرَت ثم توقَّفَت لاهثة أمام المنزل، ورفعت رأسها، كانت نافذة إمتثال مضاءة، دفعَت هدى بابَ المنزل، وصعِدَت السُّلم المظلم ذا الدرجات المتهالكة، اهتزَّ الدرابزين، ورأت مناظرَ قبيحةً على الجدران، توقَّفت هدى عند الطابق الثاني، كان باب إمتثال على اليمين، عدَّلت من غطاء رأسها، وهندمت فستانها وعضَّت شفتَيها الناريتَين، ثم طرقت الباب.

ما لبِث أن فُتح الباب، وظهرَت إمتثال، منطلقةَ الشعر، وبدا جسدها الممشوق الذي يزيِّن الليل.

– أهوَ أنتِ؟ ادخلي يا عزيزتي.

– جئتُ لزيارتك، هل يُزعجكَ هذا؟

– على العكس، يسعدني أن أراكِ، ادخلي واجلسي.

ودخلت هدى الغرفة، ظلَّت واقفة وسألت: هل الطفل نائم؟

– نعم، إنه نائم، لكن يمكنكِ أن تضعيه على ركبتَيك.

توجَّهت هدى نحو ركن الغرفة حيث يوجد المهد، كان الطفل نائمًا، رفعَته برقةٍ بين ذراعَيها، ثم انحنت ووضعَت الطفلَ على ركبتَيها وهي تُحسُّ بسعادة بالغة.

جلست إمتثال، صديقة الطلبة، فوق طرف السرير على سجيَّتها ترتدي منامةً صفراء مطرَّزة بزهور كبيرة متباعدة، تكتسي ملامحُها بحسٍّ دافئ، وتحت ضوء مصباح الغاز، بدا وجهها شاحبًا وكأنها تضع قناعًا، فهي ذات جمالٍ أخَّاذ، ومأسوي، قالت: أخبريني، هل أرسلك رفيق؟

قالت هدى: لا والله، لقد جئتُ من تلقاء نفسي، أحبُّ رؤياكِ وأن ألعب مع الصغير.

– وأنا أيضًا، يُسعدني أن أراكِ.

– أنتِ لطيفة معي.

– والآخرون، أليسوا لطفاءَ معكِ؟

– ليسوا أشرارًا، ألطفهم سراج.

قالت إمتثال: لأنك تحبِّينه.

قالت هدى: أعتقد هذا.

– وهو ... هل يحبُّك؟

– لا أكاد أعرف شيئًا عنه.

قالت إمتثال: ولن يعرف أحدٌ شيئًا عنهم.

كان صوتها مبحوحًا، ذا نبراتٍ بطيئة، يعكس الألم والبهجة معًا.

أطلقت تنهيدةً وسكتَت؛ فمنذ مغامرتها مع رفيق، تولَّد لديها حقدٌ دفين ضد أسرة الشاب، وهي لن تغفر أنهم حطَّموا حبَّها وحُلمها في حياة كريمة، اعتقدت إمتثال أنَّ العجوز حافظ قد أبعد ابنه عنها لأنها عاهرة، ولم تعرف الأسبابَ الحقيقية لدوافع رفضه، وظلَّت تلعنه حتى الجيل العاشر، سألتها: هل ينامون دائمًا؟

قالت هدى: إنهم ينامون، ولكنهم أصبحوا الآن مجانين.

– لماذا؟ ماذا حدث؟

– إنها مأساة حقيقية تُهدِّدهم.

– مأساة، ما هي يا عزيزتي؟

قالت هدى: سيدي يريد أن يتزوج.

وانفجرت إمتثال ضاحكةً، ضحكًا هستيريًّا هزَّها بعنف، قالت: إنه شيء غريب، العجوز حافظ يريد أن يتزوج، وما رأي رفيق؟

– إنه هناك يتصدَّى له بصفة خاصة، ليس أمامه سوى السهر طيلة النهار، ولم يَعُد ينام، ينتظر.

– ماذا ينتظر؟

ينتظر مجيء الحاجَّة زهرة، الخاطبة، يريد أن يمنعها من رؤية سيدي، فهي التي تتولَّى شئون هذا الزواج.

بدَت إمتثال كأنَّ فرحًا مجنونًا استبدَّ بها، رمشَت بعينها، وضربَت بيدَيها وتقلَّبت على السرير، وقالت: رائع، إذن فهم متيقظون، وينتظرون، ألا تعرفين إلى أيِّ حدٍّ يُسعدني هذا؟ أريد أن أراهم هكذا.

قالت هدى: هذا ليس مسلِّيًا بالنسبة لي؛ فكلُّ هذه المصيبة تقع على ظهري.

قالت إمتثال: أرثي لحالكِ يا عزيزتي، لقد نسيتُ أنَّك يجب أن تتحملي كلَّ هذه الفواحش.

أمسكت مشطًا كان على التسريحة وبدأت تمشيط شعرها، ذلك الشعر الأسود الطويل الذي يُترك حتى أسفل ظهرها؛ مقسَّمٌ إلى قسمين ثقيلين، وكم تعتني به إمتثال دائمًا، وتعرف عمق عطرها الخفي الذي يُغرِق رغبةَ الأجساد البكر لزبائنها الشباب، إنها عاهرة من طراز خاص، ومهنتها لا تُتعبها كثيرًا، ولا تُسبب لها النفور؛ فعند الاتصال بأحد عشاقها الشباب لا تُحسُّ بأيِّ اشمئزاز، بل يتسلَّيان بجهلهما، وحياتهما في البحث عن

المتعة، لقد تعلَّمَت من العديد منهم كيف تُمارِس الحب، وكانت فخورة بذلك، ينتابها قلقُ الأم حين يتقدَّمون في ممارستهم؛ فقد كان رفيق هو الرجل الوحيد الذي أحبَّته، وهو أيضًا الذي كشفت له عن عبق جسدها السري، والتجربة المتمثلة في مهنتها، اعتقدت أنه سيظل يحبُّها دائمًا، وأنَّ فشلهما سوف يُشفى ببطء، ثم جاء الطفل.

نام الطفل على ركبتَي هدى، شاحبَ الوجه ويلمع تحت ضوء المصباح، نظرَت إليه بابتسامة مريرة على شفتَيها المصبوغتَين، تخاف أن يكبر، ولا تستطيع أن تحتفظ به في غرفتها، أحيانًا عندما يبكي، تُضطر أن تُمسكه بين ذراعَيها، وهي تتلقَّى مداعبات زبونها، عليهما أن ينفصلَا يومًا، أو أن يُقيمَا في مكانٍ آخر، في مسكنٍ أوسع، إنه مصدر قلقِها الوحيد، سألت هدى: إذا كنتِ تنتظرين أحدًا، فاطلبي مني أن أذهب.

قالت إمتثال: لا، أنا لا أنتظر أحدًا الآن، يمكنكِ البقاء، احكي لي.

– ماذا تريدين أن أحكيَ لك بعد هذا؟

– أخبريني كيف حال سراج؟ وهل هو منزعج من زواج أبيه؟

– لا، سراج لا يفكر سوى في الخروج للبحث عن عمل، وأنا خائفة عليه.

– لماذا تخافين؟

– لا أعرف، هل تعتقدين أنهم مخلوقون للعمل؟

– أعتقد أنهم غير قادرين، هيه، لعلك تخافين من فقدانه، لكن سرعان ما ستمرُّ هذه الفكرة.

قالت هدى: يسمع منك ربنا؛ فأنا قلبي مهموم.

قالت إمتثال: نعم أعرف هؤلاء الناس، أعرف أنهم قادرون. ويفضِّلون التبوُّل على بنطلوناتهم بدلًا من أن يربطوا أزرارها، وهذا يُتعبهم كثيرًا.

قالت هدى: مثل جلال، إنه هكذا تمامًا.

علَّقت إمتثال: نعم أنا أعرفه، رغم أنني لم أرَه؛ فحين جئت لأسكن هنا، كان مدفونًا في النوم، يتصرَّف كأنه سيدهم، ورفيق معجبٌ به كثيرًا.

قالت هدى: إنه مدهش، عندما أراه، تنتابني الرغبة في النوم، وبشكلٍ تلقائي.

وما إن جاءت سيرة جلال، حتى فتحَت فمها، وتثاءبَت، بدا الطفل ثقيلًا على ركبتها، وأحسَّت بالتعب من مجهود النهار، فارتجفَت أعضاؤها، واختلطَت رائحة مصباح الغاز بالدخان، والمساحيق التي تُثقل جوَّ الغرفة، أحسَّت هدى بأنها تنزلق في نُعاس فوق السرير الكبير، أما مرآة الدولاب فتنعكس عليها حركات إمتثال، كلُّ هذه الأجواء الماسخة السخيفة

٨

بدأت تُدير رأسها، رأت جسدَ إمتثال الرشيق، وهو يتمدَّد على ألواح السرير الوردي، ظهرَت إحدى ساقَيها من بين قميصها، فلمعَت في ضوء المصباح الخافت، وكأنها قمة فحشاء الجسد.

أحسَّت هدى بجوٍّ الفجور يفوح في المكان، وسمِعَت تغنيجةَ حبٍّ تنفك في صمت، بدا هذا المكان بالنسبة لها، لأول مرة غريبًا، وفاسدًا، اهتزَّت، ودعكَت عينَيها وسألَت بصوتٍ مخنوق: إذن فأنتِ لا تريدين رؤيته؟

– عمَّن تتكلمين؟

قالت هدى: أتكلم عن رفيق، إنه يزعجني بهذا الموضوع، يعتقد أنها غلطتي لو رفضت رؤياه.

صاحَت إمتثال: أخبريه أنني لن أراه أبدًا، وأنني ألعنه بكل روحي، ليبقَ بين أسرته العفنة، آه، أنت لا تعرفين كبرياءه، إنه ينفجر بالغرور، هل تعرفين أنه أخبرني يومًا أنه عندما رأى جنازة فإنه يتمنى لو كان هو الميت، يا للنفخة الكاذبة، هل يمكن أن يكون الإنسان مغرورًا إلى هذا الحد؟

قالت هدى: أخبرني أنه يريد أن يفسِّر لك بعض الأشياء.

– ماذا لديه ليفسِّره لي؟ لا أريد تفسيرًا، يكفيني أن أعرف أنه غارق الآن في مأساة، آه سوف نضحك كثيرًا، أتمنى أن يُوزَّع المُلَبَّس في عُرس هذا العجوز، لا تنسَي أن تُحضري لي نصيبي.

بدَت إمتثال سعيدة، وهي واقفة عند طرَف السرير، وكأنها ضحية، استبدَّت حَفنة ألم بملامحها الملتهبة من المساحيق، لقد حان وقتُ انتقامها أخيرًا، فكشفَت عن صدرها وانفجرت في ضحكٍ مجنون.

أزعجه النداء الدائم والمختال لبائع الذرة: ذرة مشوي، كُلِ الذرة المشوي.

هؤلاء الباعة المتجوِّلون هم أكثرُ ما يكره في العالم، فهم ينادون على بضائعهم في آذان المارَّة، وكأن الأمر يتعلَّق باختراع جديد، لكن هذا لا يزال أكثرَ نبلًا من الآخرين، تبدو عليه ملامح العمال وهو يسحب أكواز الذرة المشوي، يا لَه من غبي، سمِع رفيق نداءه ينطلق من مسافةٍ تملأ الليل، أحسَّ خلفه بزعيق الرجل الصارخ، وكي يتخلَّص منه تعجَّل الخُطَى، الطريق خاوٍ الآن، لكنه أحسَّ بوجود بعض الحيوانات الضالة التي تتأهَّب للموت، وكأنهم يرقبونه خلف جدران المنازل، تكمُن خلف أشواك الحقول المظلمة، وحتى في السماء الداكنة أعلى رأسه.

لا يزال رفيق يتحرَّك منذ لحظة تحت نافذة إمتثال، لم يجرؤ أن يصعد، خشي أن تكون مع أحد الزبائن، فهو لم يعِش مثل هذه اللحظة من الخزي، أحسَّ بغَيرة قاتلة وهو يفكر فيها وهي تمارس الحب، هاجمَته مناظرها وتوتَّر تحت رزحِ ذكرياته الحية، ألقى نظرةً نحو الباب الكبير واستعاد مظهره المكفهر؛ فالمنزل موجود فوق ظليلة ولا تنعكس منه الأنوار، فبدا كأنه غارق في الليل بواجهته الكئيبة، وجدرانه، لم يستطِع رفيق أن يُبعد عينَيه عن البال الكبير؛ فقد دفعَته رغبتُه أن يأتيَ إلى هنا حيث توجد إمتثال، وتغيَّرت إلى رغبةٍ جسدية، فجأةً حدَث تمزُّق، وسطع ضوءٌ في الظلام؛ فقد مرَّت سيارةٌ مسرعة مخلِّفة غبارًا من الرعب، أحسَّ رفيق بأن شيئًا ينهشه، وترنَّح كرجل سكير، لم يحتمل أيَّ صدمة؛ فرأسه يؤلمه، وأعضاؤه توجعه.

أسرع نحو مكانٍ يمكنه الجلوس فيه، خاشيًا أن يسقط فوق الأرض.

كان بالمقهى الذي دخله بعضُ القذارة بدَت تحت ضوء مصباح الغاز، سبحت بعضُ الموائد المترنحة في هذا الضوء الصاخب. جلس صاحب المقهى خلف قِمَطْره، رجل في الثلاثينيات من عمره، شاحب الوجه، فوق أذنه اليمنى وشمُ عصفور، انشغل في إعداد أشياءَ تبدو غير ذات أهمية، لم يكن هناك أحدٌ في المقهى، سوى امرأة عجوز تملؤها التجاعيد، وقد غطَّت رأسها بحجابٍ أسود، شغلت مائدة قريبًا من القِمَطْر، وألقى على الرجل نظرةً بعينَيه المرتبكتين.

طلب رفيق قهوةً، وانتظر شاردًا حتى يستعيد قوَّته، وأن يتخلص من جبنه، لقد خرج بنيةِ أن يرى إمتثال، ولم يجرؤ على الصعود إليها.

لماذا لم يصعد عند إمتثال؟ لا شكَّ أنَّ رغبته فيها تمنعه، وحين خرج من المنزل، كانت رغبته في الخلفية تمامًا، أراد فقط أن يتحدَّث إليها من تحت نافذتها، وفكَّر في أنها تستقبل زبونًا، وأحسَّ بالدم يغلي في عروقه، ولم تنطفئ رغبته فيها، كانت قريبة منه، وتسري فيه حرارةُ جسدها، أحسَّ أنه مطارد من نداء الرغبة القديمة.

وفي هذه اللحظة فوجئ بلعبة غريبة.

تكلَّم صاحبُ المقهى مع المرأة العجوز الجالسة على المائدة القريبة من القِمَطْر، لا شيء غريب فيه، فجأةً، غيَّر صوتَه وحركاته، وبدا كأنه شخص آخر وللحظة طويلة، تم تبادل الدَّور، فيبدأ هو أولًا، ثم يتحوَّل إلى شخص آخر، الشخص الآخر هو نفسه له صوَّت علامات محدَّدة تمامًا، تعرَّف عليه بسرعة بمجرد دخوله في المشهد، دارت اللعبة في احتفالية غريبة، دون أن تفسد سحرها أيُّ أمور غير حقيقية.

بدا رفيق مندهشًا لهذا الغموض، ثم عاود طلبَ القهوة، جذب انتباه الرجل وهو يطرق على المائدة، لوَّح له الرجل برأسه، كأنه يبيِّن له أنه قد فهِم.

وبعد لحظة، أحضر له القهوة، نظر رفيق إلى الرجل بعينَين يملؤهما التساؤل، قال الرجل: أيوه هكذا.

سأل رفيق: ماذا تقصد بهكذا؟

وضع الرجل أصبعًا فوق شفتيه وهو يقول: هذه المرأة أمي.

قال رفيق: وماذا؟

قال الرجل: إنها مجنونة.

قال رفيق: فهمتُ، ولكن لماذا تمثِّل هذه الملهاة؟

قال الرجل: ليست ملهاة، اسمع، إليك الحكايةَ، كان لي أخٌ مات في السنة الماضية.

وأمي لم تصدِّق هذا، فأُصيبت بالجنون، وحتى لا أُحزنها فإني أتصنَّع صوتَ وسلوك أخي، وهكذا فإنها تصدِّق أنه حي وهي تراه.

قال رفيق: يا لَها من حكاية!

قال الرجل: نعم، حكاية قذرة، وهذا يُتعبني كثيرًا، خاصةً مع العمل الذي أؤديه؛ ففي كل مرة تأتي لتراني، أضطرُّ أن أوزِّع نفسي على هذه الأصوات.

قال رفيق: كم أرفق بك!

قال الرجل: وهذا يجعلني في حاجة أن أتكلَّم إلى أي أحد، أنت لا تعرف أي أسًى أنا فيه.

قام رفيق وخرج من المقهى، وقد أثَّر فيه ما رآه لتوه، فالجنون الذي يصيب البشر لم يَعُد يُدهشه؛ فقد عرف العديد من النماذج، ولقد كان صاحب المقهى أيضًا أكثرَ جنونًا من أمه.

إنهما مجنونان، لا يوجد أيُّ عزاء فوق الأرض؛ لذا هرول رفيق إلى بيته.

٩

الفأر الآن تحت السرير، سمِعه جلال يخربش أطرافَ الباركيه، ولم يجرؤ على الحركة، كما لم يجرؤ أن يفتح عينَيه من بردِ العَرق فوق جسده، وأحسَّ به ينسال في خطوطٍ رقيقة بطول أعضائه، هذا الفأر يجيء كل يوم لينتزعه من نومه، إنه فأر عنيد، يلفُّ في دوائر، ثم يروح يجري من ركنٍ لآخر من الغرفة، تاركًا وراءه أصواتًا مسموعة، أحسَّ جلال الغارق في النوم باشمئزاز، وأنه على وشْك أن يقرض جلده.

رفع الغطاء ونظر حول السرير، لم يكن رفيق هناك، تُرَى أين يمكن أن يكون؟ لقد أصبحَا سخريةً في هذا البيت، ماذا يدفعهما للبقاء هكذا متيقظَين، ضائعَين في عبثٍ لا طائل منه، وكأنهما في نهاية العالم؟ دفعته هذه الفكرة للابتسام، ولكن هل هي نهاية العالم حقًّا؟

تدفَّق نورٌ في أعماقه: زواج أبيه، لقد قرَّر أبوه أن يتزوج فعلًا، أما هو فلم ينَم منذ أيام، ولا يعي شيئًا، كيف يمكن أن تحدُث مثل هذه الكارثة؟ سيكون هذا بؤسًا لا شفاء منه، يجب أن يمنع هذا الزواج بأي ثَمن، وأن يتصرَّف بكل سرعة، يتصرَّف، أحسَّ جلال بهذه الفكرة عبْر تشنجات جسده المؤلمة.

أحسَّ بالتهديد، كيف لم يخمِّن تلك المأساة الحقيرة التي تختفي وراء هذا الزواج؟

فوجود امرأة في المنزل سيقلب حالة النوم السائدة منذ قديم الأزل. فكَّر مرة أخرى أنه يجب أن تبتعد هذه الكارثة، من الأفضل أن يموت أبوه، ولكن هذه المبادرة لم تُعجب جلال كثيرًا.

فموتُ أبيه سوف يُحدِث تعقيداتٍ من نوع آخر، غيرَ مريحة، وأكثرَ سرعة، أولًا ستأتي النائحات اللاتي لن يفوتهن إزعاجه، بصرخاتهن النسائية النارية التي ستملأ البيتَ لعدة أيام.

ثم عليه أن يقوم، ويستقبل المعزِّين، ويمشي في الجنازة حتى يتم الدفن.

لا، من الأفضل ألَّا يموت أبوه، يجب أن يجد وسيلةً أخرى، أحسَّ جلال أنَّ فكرة هذا الزواج سرعان ما تُسبب له الارتباك، وتصوَّر نفسَه في قلب الخطر فلا يعرف كيف يتصرف ولا أحد هناك ليُنقذه، تذكَّر أنه كلَّف رفيق أن يتولى هذه المهمة؛ ولهذا فرفيق ليس فوق سريره، آه، يا للصبي الشجاع! لعله سوف يغتال الحاجَّة زهرة؛ فجلال يثق به تمامًا، لقد كاد أن يصبح مهندسًا، ولديه معرفةٌ تقنية بالغةُ العمق، أحسَّ جلال بهدوءٍ أكثرَ، ولكن النوم لم يأتِ مرةً ثانية.

تُرى كم الساعة الآن؟ على كلِّ حال، فالفجر لم يَحِن بعدُ، لم يتذكَّر جلال أنه سَمِع عرباتٍ تمرُّ، تلك العربات التي تأتي من المصنع القريب، وتنقل الطوبَ الأحمر إلى المدينة، إنها تمرُّ بشكلٍ منتظم فوق الطريق، محدِثةً ضوضاء شديدة تهزُّ المنزل من أساسه، توقظ جلال في كل مرة تحت تأثير الكارثة، لا يمكن أن يمنع نفسَه من التفكير في الرجال الذين يقودون العربات، يتساءل دومًا في معاناةٍ عن أي معجزة توقظ هؤلاء الرجال في الفجر للذهاب إلى العمل، إنه شيء لم يفهمه جلال بعدُ.

بدا الفأر الآن وكأنه مصابٌ بحمَّى، فجأةً راح ينخر، وكأنه يبحث عن مخرج، سمِعه جلال، توقَّفت أنفاسه، والغطاء يغطيه حتى الجذع، أحسَّ بالخوف وأنه يجب أن يغادر السرير، فهذا المنظر يسبِّب له الجنون، أراد أن يُشعل الضوءَ، ولكن كي يصل إلى مفتاح الكهرباء فعليه أن يبذل مجهودًا خارقًا، تململ في غطائه، وحاول أن ينسى كلَّ شيء وأن يستكمل نومه.

أحسَّ بشخصٍ ما على مقرُبة منه، فبُوغت: هل أنت يا رجل؟

كان العمُّ مصطفى واقفًا على مقرُبة من السرير، يرتدي ملابسه كالعادة، ويضع طربوشه على رأسه، سأل جلال: هل ستخرج؟

قال العمُّ مصطفى: لا، لن أخرج، أنا قلِق.

قال جلال: أنتَ ترتدي ملابسك كأنك متأهِّب للخروج دومًا، وهذا الطربوش، كيف يمكنك أن تتحمَّله على رأسك؟ أليس ثقيلًا؟

قال العمُّ مصطفى: الأمر ليس بهذه الصورة، أرجوك، استيقظ لحظة.

قال جلال: يمكنك أن تقول إنك محظوظ، لقد استيقظتُ، ماذا تريد؟

قال العمَّ مصطفى: أنا قلِق.

– لماذا، ماذا هناك؟

– حسن، لقد خرج أخوك رفيق منذ المغرب ولم يَعُد.

سكتَ العمُّ مصطفى ونظر إلى جلال، ومن الباب المفتوح، كانت السهراية تضيء الممرَّ وقد سرَّبت شعاعًا من الضوء، في هذا الضوء الوحيد، بدا جلال شاحبًا، وكأنه جثة، تراجع العمُّ مصطفى خائفًا، وظل فوق سرير رفيق الخالي، وأطلق تنهيدةً أعمق من المعتاد، قال جلال: أنت قلِق بلا سبب، كم الساعة؟

قال العمُّ: العاشرة.

قال جلال: وماذا يعني، اعتقدتُ أن الوقت أكثرَ تأخرًا.

قال العمُّ: هذا ما يقلقني؛ فهو لم يَعْتد الخروجَ وأنا لا أفهم.

قال جلال: ربما صحِبه سراج ليبحث عن عمل.

قال العمُّ: مستحيل، رفيق لا يفعل هذا، فهو لم يبحث قطُّ عن عمل، ثم إنَّ سراج في غرفته.

في الحقيقة لم يكن القلق الذي ينتاب العمَّ مصطفى سوى حجةٍ للثرثرة مع جلال، إنه في حاجة للكلام مع شخص، تحرَّك في المنزل، هذا الصمت المميت يقهر روحه، ووعيه يؤلمه.

فصورة بطن الغسالة المنفوخ لم تتركه قط، وهو لم ينجح في أن ينزعها عن ذاكرته، إنه يبذل أقصى ما لديه يومًا وراء يوم، حاول العمُّ مصطفى أن يدافع عن نفسه، هذا البطن المنفوخ لحياة غامضة تحطِّمه وتخنقه، حدَث شيء غريب في داخله، راح يفكِّر في الطفل، فهذا البطن كان يحمل طفلًا منه، وهو لا يشكُّ في هذا، تُرَى ما مصير هذا الطفل؟ انتاب العمَّ مصطفى شعورٌ بالندم؛ فوجوده معلَّقًا بنقطة محدودة، ظنَّها تتملكه بقوة خلابة، يمكنه أن يقضيَ ساعاتِ فراغه لتعميق إحساسه بالندم، أحسَّ شبابه يعود به: إذن، أليس لديك فكرة أين يمكن أن يكون؟

– يا عم مصطفى، ليس عندي فكرة، ألَا تعرف أنت أين وضعته؟ أنا قلِق، فاتركوني في حالي.

– لا تغضب يا بُني.

– هناك أيضًا هذا الفأر اللعين، لقد استيقظت بسببه.

– هل هناك فأر في هذه الغرفة؟

– نعم، إنه هناك يقرض شيئًا لا أعرفه.

حرَّك العمُّ مصطفى ساقَيه بشكل غريزي أسفله، وألقى نظرةً خائفة على الباركيه … وقال: قلتُ لهدى أن تضع مصيدة.

قال جلال: ولا يهمك، أنا لا أريد مصيدة، فربما أشتبك فيها.

ورانَ صمتٌ، حاول العمُّ مصطفى أن يسمع صرير الفأر، نظر إلى خط الضوء الداخل من الباب، إنها وسيلةُ الإنقاذ الوحيدة ضد الخطر، ولكن ليس هناك أيُّ صوت، رفع عينَيه ونظر إلى جلال في الظلام، ورأى وجهه يلمع بابتسامة كئيبة، سمِع ضحكة ساخرة: يا عمُّ مصطفى، أعرف أين ذهب رفيق.

– أين هو، يا بُني؟

– ذهب يغتال الحاجَّة زهرة، إنه ولدٌ شجاع، يريد أن يجنِّبَنا هذه المأساة الكبرى.

– اسكت، يا جلال يا بني، أنت تُثير دهشتي؛ لأنك ولدٌ عاقل ورزين، وها أنت تتصرَّف بحدة.

– هكذا تكون أمور الزواج.

– سوف يتزوج أبوك، وهذا حقُّه، ولا يمكننا أن نمنعه.

– وماذا يمنعك من النوم يا بُني؟

– يا عم مصطفى، لماذا تتغابَى؟ فالطفل يكاد يفهم هذا الأمر، كيف يمكننا أن ننام في هدوء وفي البيت امرأة؟ امرأة تروح وتجيء طيلةَ النهار، وتُرتب كلَّ شيء حولها؟ تودُّ أن يكون كلُّ شيء مرتبًا ولامعًا كي تُعجِب الجيران، فتبدأ بأن توزِّع علينا الخدمات؛ لأن الصغيرة هدى لن تُوفِّيَ احتياجاتنا، تخيَّل يا عم مصطفى خادمٌ في البيت! كم أتأوَّه من الفظاعة لو أخذنا النسائب في الحسبان، سيأتون لزيارتنا، وعلينا أن نقوم ونرتديَ ملابسنا كي نستقبلهم، وربما ستُضطر للكلام معهم، أسألك أيَّ حياة ستكون؟

– أنت تبالغ يا بُني، ثم إنَّ هذه مشيئة أبيك، فهو السيد، وفيما بعدُ، لن تشعر بالغضب حين تكون هناك امرأةٌ في البيت، الحياة ستكون أفضلَ.

راح العمُّ مصطفى يتخيَّل صورةً مبهجة للحياة عقب زواج أخيه الذي سيغيِّر المنزل، سوف تغمره سعادة من رؤية الناس، وربما من زيارتهم.

– يا عم مصطفى، تصوَّرت أنك يمكن أن تكون خائنًا، لكن ليس إلى هذا الحد، إذن فأنت تريد رؤيتنا ونحن نموت.

– اهدأ يا ابني، صدِّقني فليس في كلامي شيء مأسوي.

– دعني أنام، مَن يعرف إذا كانت أيام نومنا أصبحت محسوبة، لا أريد أن أقول أكثرَ من هذا.

– أرجوك ... لا تنَم ثانيةً، كلِّمني قليلًا.

لم يودَّ الصعودَ إلى غرفته؛ فصورةُ الغسالة ذات البطن المنتفخ تنتظره بأعلى، وهذا المساء ليست لديه القوة اللازمة لمواجهتها، إنها أشبه بشيء يمزِّقه، بجسدٍ لم يلمسه إلا بحذرٍ شديد، عليه أن يبقى لأطول وقتٍ ممكن في ركن من الظل، أمام كيان إنساني مشطور إلى قسمين، يكتنفه النوم.

– اسمعني، فلعل هذه الزيجة لا تتم.

قام جلال من سريره، كي يتأمَّل من دهشه: وكيف هذا؟

بسبب الأليطة.

– أي أليطة؟

– أليطة أبيك، لنرَ!

– هل لأبي أليطة؟

– ألَا تعرف؟

– لا، كيف أعرفه، إنه خبرٌ غريب، أعرف أنه مصاب بالسُّكر، أعتقد أنه مرض عابر ولا يعرقل زواجه.

– لا، مرض السُّكر من اختراع الحاجَّة زهرة، الحقيقة أنَّ لأبيك أليطة.

– هل رأيتها؟

– مثلما أراك، إنها ضخمة.

وران صمتٌ شديد، صاح جلال: إذن فقد تم إنقاذنا؟

قال العمُّ مصطفى: أعتقد!

– حسنًا يا عم مصطفى، أشكرك على هذا الخبر، يمكنك أن تذهب الآن، ويمكنني أن أنام.

قام العمُّ مصطفى رغمًا عنه وتردَّد في الذهاب، ولكنه سمِع شخيرَ جلال، وفَهِم أنَّها محاولة غير مجدية، وخرج من الغرفة مكتئبًا.

غمره ضوء المصباح الكهربي كأنه ماء بارد، هبَّ من مكانه وتوجَّه إلى سريره: هل أنت مجنون أن تُشعله دون أن تخبرني؟

– معذرة، فأنا لا أجد بيجامتي.

– إنه رفيق الذي عاد يرتدي ملابسه من جديد.

– هل قتلتها؟

– مَن؟

– بشرفي، الظاهر أنك نسيت كلَّ شيء، أليس من الواجب عليك أن تقتل الحاجَّة زهرة؟ وأنا كغبي اعتمدت عليك.

– أنا لم أنسَ شيئًا، لا تقلق، فسوف أقتلها يومًا؟

تكلَّم جلال وقد احتفظ بعينَيه مغلقتين، إنه لا يستطيع أن يواجه الضوءَ الشديد للمصباح الكهربي، بدا كأنه أعمى، راحت يداه تطوحان في الفراغ: أرجوك، أطفئ هذا النور.

انتهى رفيق من لُبْس ملابسه وانسلَّ في بيجامته، وأطفأ المصباح وتمدَّد على سريره، وبكل برودٍ قرَّر أن ينام.

– اسمعني، لقد أخبرني العمُّ مصطفى بخبر جميل.

سأل رفيق: أي خبر؟

قال جلال بحرارة: خبر على جانب كبير من الأهمية لنا، فأبوك لديه أليطة.

وتحرَّك رفيق ومال خارج السرير.

– هل أنت متأكد أنَّ العمَّ مصطفى لم يكذب عليك؟

– لا أعتقد، أخبرني أنه رآها، وأن الزواج لن يتمَّ.

قال رفيق بصوتٍ حالم: إنه شيء جميل، هل هي ضخمة؟

قال رفيق: ليس تمامًا، يجب أن أراقب الحاجَّة زهرة، إنها خاطبة ملعونة، ويمكنها أن تزوِّج مينا.

وناما في راحةِ بال، وهما يفكِّران في أليطة الأب التي ستنقذهما من الكارثة.

١٠

وقف سراج أسفلَ التل يرقب كلَّ ما حوله، إنه موجود في نفس الضاحية التي سبق أن رأى فيها الطفل يصطاد بالنبلة، فتأكد أنَّه سيراه يظهر خلف عيدان الذرة العالية. ارتفعت أشجار الجميز أمامه عند طرَف الممرِّ، وسمِع صداح العصافير وهي تقفز فوق فروعها، طال الممرُّ عبْر حقول الذرة وبدت حافة الطريق ضائعةً في ضِياعٍ بعيدة، راح سراج يُحدِث مِن حوله أقلَّ ضجة، وألقى حوله نظراتٍ زائغة، إنه حزين لأن الطفل لم يظهر، وعندما خرج هذا الصباح لمشاهدة المصنع الذي تحت التأسيس، فكَّر فيه وتأكَّد أنه يتصعلك في نفس المكان.

اغتمَّ لأنه لم يرَه؛ فقد توهَّم أنَّ الطفل يجب أن يكون هناك في انتظاره، وأنَّه لا يستحق منه هذه الخيانة.

نظرَ حوله مرةً أخرى، ولكنه لم يرَ أيَّ أثر للطفل، لا يعرف ماذا يفعل الآن، فغياب الطفل نذيرُ نحسٍ بأنَّ القدَر يعانده، وهدفه هو أن يجد الطفل وأن يتَّفق معه كي يصحبه إلى المدينة. إنه يودُّ لو ربط نفسه بذاته، ويتذوق معه المغامرات المثيرة، ولكن الطفل خذله، وجال في كلِّ الطرق وحدَه وهو لا يخشى شيئًا، انتابه حنينٌ كالعلقم وهو يتذكَّر لقاءهما الأول.

أصابه الملل وهو ينتظر ظهورَ الطفل بلا جدوى، فعليه أن يذهب إلى المصنع باعتباره هدفه الأسمى، نزل المنحدر وغاص عبْر الحقول.

الجو صيفٌ الآن، والنهار حارٌّ، وسراج يعاني من الصديرية الثقيلة، فكَّر أنه يجب أن يغيِّر ملابسه إذا استمرَّ في تكملةِ مسيرته، وربما عليه أن يعتمد على النظارة الداكنة كي

يحميَ عينيه من الشمس، فلا شكَّ أنَّ هذه الحرارة أفضلُ من فصل الشتاء المتقلِّب، فهنا لا يتعرَّض المرء لأخطار المطر والريح، فهو لا يرى السُّحُب الثقيلة الحزينة التي تسبِّب الأسى والحزن، أحسَّ سراج بقوة المغامر تنتابه أكثرَ من أي وقتٍ مضى، بدا له أنَّ دماءً جديدة تسري في عروقه.

فالحياة في أُسْرته لم تَعُد غيرَ محتملة، ومنذ أن قرَّر أبوه الزواج، بدا كأنَّ شيطانًا استقر في الدار، رفيق في حالة تأهُّب، وجلال لم يَعُد ينام، ومن المثير للرثاء أن يرى جلال قلقًا هكذا، إنه كِيان آدمي؛ لذا فسراج يعاني من أجْلِه.

رمى بأفكاره الحزينة وعجَّل خطاه، هذا النور الذي يحوطه من كل الأركان فتح له آفاقًا لم يسبق له التفكير فيها، تخيَّل نفسَه متوجهًا بالفعل إلى عمله، إنه وهمٌ جميل، دفع سراج، للابتسام في سعادة.

وصل لاهثًا إلى قمَّة التل، الآن، يمكنه رؤيةُ المصنع، يبدو مثلما تركه وراءه في زيارته الأخيرة، لم تحدُث أيُّ تغيُّرات في الجدران التي لم ينتهِ بناؤها، إنه نفس الخراب المفجِع، وبنفس المنظر الاستفزازي، رأى سراج أمامه رجلًا ملتحيًا قريبًا من كانونٍ يطهو عليه وجبتَه.

أحسَّ سراج ببصيص من الأمل، وسرعان ما وضع في حسبانه أنَّ الرجل يمكن أن يكون حارسًا وليس عاملًا، تساءل لحظة: هل يسأله عن موضوع المصنع، سيعرف أخيرًا لماذا لم ينتهِ، وعمَّ إذا كان سينتهي، فالرجل يجب أن يعرف هذا، تردَّد سراج وهو يدلِف في الطريق، طريقٍ يفصله عن الرجل، شهِد فيه حادثًا، وتملؤه المطبَّات، إنه في قلب الخطر، أراد سراج أن يعرف مدى إمكانية العمل في المصنع، إنها فرصته الأخيرة للمعرفة، لملم شجاعته، ونزل من التل، وراح يدقُّ فوق الأرض المتربة التي يقع المصنع وسطها، وقد ارتفعت جدرانه التي لم تنتهِ.

تقدَّم بصعوبةٍ بين كومات الحجارة الضخمة التي تعلو الأرض فاصطدمت قدماه بالأخاديد، أدرك أنَّ الأمر أكثرُ خطرًا ممَّا يعتقد، فكاد أن يسقط أكثرَ من مرة، بدا كأنه يسير في طريقٍ بلا نهاية، ثم توقَّف أخيرًا، إنها أول مرَّة يرى المصنع قريبًا إلى هذا الحد، خاف من منظر الجدران التي تشبه محراثًا يدفعه رجل، رآها تتضخَّم أمامه، وكأنه يدفع وجودَه الآثم.

قفز سراج فوق حديد التسليح ووجد نفسَه واقفًا أمام الرجل، تأمَّله للحظة في صمت.

– السلام عليكم.

رفع الرجل وأجاب بصوتٍ أجشَّ: عليكم السلام.

كان مشغولًا يطهو الفول على الكانون، إنه رجلٌ عجوز، ملابسه مرتَّقة مثل زي شحَّاذ، وقد وضع عصًا طويلة قريبًا منه فوق الأرض، سأل سراج: هل أنت الحارس؟

قال الرجل: نعم، وأنت، ماذا تريد؟

قال سراج: اعذرني، أريد أن أعرف لماذا لم يتمَّ الانتهاء من هذ المصنع؟

قال الرجل: الله وحدَه يعلم، لقد طلب مني أن أبقى هنا، ولا أعرف أكثرَ من ذلك.

وظلَّا لحظةً بلا كلام. انشغل الرجل بفوله، قلَّبه بقطعة من الحديد الأبيض على شكل ملعقة، انطلقت رائحة الطعام وأغلق الرجل عينيه من الرضاء، نظر إليه سراج فرحًا وقلقًا، فهو لم يعرف شيئًا من هذا الرجل.

– إذن، أنت لا تعرف شيئًا؟

سأل الرجل: فيمَ يهمُّك هذا، دع هذا المصنع في حاله.

قال سراج: حسنًا، أعتقد أنني يمكن أن أعمل به.

قال الرجل: هل تبحث عن عمل؟

نظر إلى سراج في قلق، وتفصحَّه من أعلى لأسفل، هزَّ رأسه وأكمل: لا تبدو عليك هيئةُ العمال؛ فالأفندية أمثالك لا يعملون في المصانع.

قال سراج: ليس هذا سببًا كافيًا، أستطيع أن أعمل جيدًا، لقد جئت مراتٍ عديدة هنا، ولديَّ شوقٌ كبير.

ورغم أنه شديد الإرهاق فقد جاهد أن يبدوَ متماسكًا وصلبًا، إنه يريد أن يكسِب احترام الحارس، تخيَّل أنَّ الرجل يمكن أن يوصي عليه مديرَ المصنع.

– لا يا بني، إنه عملٌ لا يليق بك.

وتم تسخينُ الفول، رفعه الرجل من فوق النار، وقبل أن يبدأ في الأكل، قال بكل أدب: تفضَّل.

قال سراج: أشكرك، لست جوعانَ.

وجلس على حجرٍ كبير، أمام الرجل، كانت الشمس تضيء الريف كلَّه، فالوقت ظهرًا، وسراج يشعر بالحر والعطش.

– هل أنت هنا منذ فترة طويلة؟

قال الرجل: منذ بضعة أشهر، ولكنني لن أبقى هنا طويلًا، إنَّه عملٌ شاقٌّ، يجب أن تحرس دومًا هذه الحجارة، وتلك الأكوام من الحديد؛ فهناك لصوصٌ يأتون لسرقةِ كلِّ شيء، وأنا مسئول ولعلك تفهم.

قال سراج: إنه عملٌ شديد الأهمية.

قال الرجل: إنَّه بالغُ الأهمية، وأنا أهتم به وحدي، يلزمه على الأقل أربعون شخصًا لمراقبة هذا كله.

وانتابت سراج فكرةٌ مفاجئة؛ فهو يمكنه أن يساعد العجوز في عمله، سيكون هذا عملًا عليه القيام به أثناء انتظاره وانتهاء المصنع.

– هل أنت في حاجةٍ إلى مساعدة؟

قال الرجل: طبعًا، على الأقل أربعون شخصًا.

قال سراج: أحبُّ أن أعمل معك، ما رأيك؟

– هل تريد أن تكون حارسًا؟

– نعم أستطيع أن أساعدك في حراسة هذه الحجارة.

– بشرفي أنت صبيٌّ غريب، وما رأي أمِّك؟

– أمي ماتت، وما كانت لتقول شيئًا.

– ومع ذلك لا أستطيع؛ فهو عملٌ لا يناسبك.

– أرجوك وافِق، فلديَّ الرغبة في العمل.

– لماذا؟ هل يضربونك في البيت؟

قال سراج: لا أحدَ يضربني، بل أنا الذي أريد الذهاب، لقد قرَّرتُ أن أعمل.

قال الرجل: سوف تجعل أهلكَ يبكون، ستكون هذه مصيبةً سوداء عليهم.

توقَّف الرجل عن الأكل وبدا كأنه يفكِّر، فهذا الصبي يبدو له غريبًا، وبدأ يشكُّ في كونه لصًّا يريد أن يستعلم كي يأتيَ في الليل مع رفاقه للسرقة.

أمَّا سراج فقد امتلأ بالأمل وانتظر قرارَ الرجل.

– إذن فأنت لا تريد؟

قال الرجل بصوتٍ مليء بالتهديد، لا، لا أريد وأنصحك أن تمشيَ بسرعة.

ارتبك سراج، ولم يفهم شيئًا.

– لماذا غضِبت؟ سامحني إذا كنتُ قد أزعجتك.

– أجل، أنت تزعجني، اذهب ولا تَعُد هنا، وإلا طلبت لك البوليس.

قال سراج مبغوتًا: البوليس؟

كرَّر الرجل: سأطلب البوليس.

وأمسك عصاه واستعدَّ لاستخدامها، وبدا شريرًا، وسال لُعابه، ثم سقطت حبات الفول على لحيته، تردَّد سراج لحظةً، ثم رحل مغمومًا دون أن ينظر خلفه.

لقد انتهى كلُّ شيء الآن، ولن يعمل أبدًا في المصنع، حتى هذه الفرصة الأخيرة قد لفظته، والحادث الذي جرى مع الحارس العجوز وضع حدًّا لأوهامه، لا يستطيع أن يتأمَّل انهيار حُلمه، سوف تكون للحياة وتيرةٌ واحدة وماسخة، وأمام هذه الفكرة التي تنتابه في اللحظات الحاسمة، وجد سراج نفسَه وقد فقدَ توازنه؛ فهذا المصنع قد لعِب دورًا هامًّا في حياته، فهو لا يكفُّ عن التفكير فيه كلَّ يوم، والآن وجد كلَّ شيء يضيع فجأةً، وليست لديه أيُّ حجَّة كي يقضيَ على كسله، لا يستطيع أن يغشَّ نفسَه أكثرَ من هذا، وصل إلى الطريق، وسار منخفضَ الرأس، يردِّد النداءات الحادة للبائع المتجوِّل الذي يقاطعه، وقد هرولت الخادمات نحوه للشراء وهن يثرثرن بأصواتٍ حادة مبهجة، مرَّ دون أن يتوقف أمام محل أبو زيد؛ فهو ليس مؤهلًا كي يواجه مصيبته، ثم إنَّ أبو زيد كان نائمًا مكوَّمًا على عتبة محلِّه، ولم يُثِر أيَّ انتباه له، إنها مصادفة سعيدة.

فسراج لا يحتمل مقابلةَ بائع الحرنكش، وليست لديه أيُّ فكرة جديدة يقترحها عليه، أحسَّ أنه مخطئ، وعلى بضع خطوات رأى هدى بين مجموعة الخادمات واقفةً قريبة من عربة بائع اللبن، لمحته الفتاة، فجرَت نحوه، وهي تحمل حقيبةً ثقيلة ممتلئة، قال سراج: أتتسوَّقين في مثل هذه اللحظة؟ ستتأخَّرين على الغداء؟

قالت هدى: ليست غلطتي؛ فسيدي نائم، وليس معي نقود، لا يجب أن أنتظرَ حتى يصحوَ.

قال سراج: أنا جوعان جدًّا، هيا، عودي إلى المنزل.

قالت هدى: سأعود معك.

لم تكن أمامه وسيلةٌ للتخلُّص منها، رآها سراج بالغةَ السعادة لدرجةِ أنه لم يجرؤ أن ينظر إليها، أمسكت يدَ سراج، وسارا متعانقَي اليدين كعاشقَين. أحسَّ سراج بالخجل من الناس الذين يرونه، ولكنه لم يسحب يدَه، وجد أنه من الرائع أن يفعل ذلك أمام أشخاصٍ يعرفونه، نظرت إليه هدى وهي تبتسم.

– أريد أن أقول لك شيئًا.

– ماذا؟

– كنت فخورةً هذا الصباح.

– آه، ممَّ إذن أيتها الغبية الصغيرة؟

ابتلعت هدى إهانتها وقالت بكل جِدية: قبل أن أذهبَ إلى السوق، تنزَّهت على الطريق مع طفلِ إمتثال، هل تعرف ماذا اعتقد الناس؟

– لا.

اعتقدوا أنه ابني، ابتسموا للطفل ونظروا لي بإعجاب، وكنت شديدةَ الفخر.

– كم أنتِ غبية، يا لها من فكرة، هل تقضين وقتكِ في التفكير في هذا بدلًا من الاهتمام بشئون البيت؟

– أنا لستُ غبية، أنا فتاة صغيرة كبيرة، أنت لا تفهم شيئًا.

انسحبت من يدِ سراج، وسارت وحدَها وهي تحسُّ بالغيظ.

١١

قالت هدى: سترحل وتتركني وحدي.

– نعم، يجب أن أرحل إلى المدينة، لا أستطيع البقاءَ في هذا المنزل.

لقد قرَّر سراج هذا الصباح أن يرحل إلى المدينة، منذ أن فقدَ الأمل في المصنع، حدث فراغ ضخم في حياته، وعليه أن يملأ هذا الفراغ؛ فقد أعطته زيارتُه إلى المصنع الذي تحت التأسيس والإحساس بأنَّه استُكمل، الشعورَ بالشجاعة التي يستمدُّ منها بعضَ قوَّته المعنوية.

ولكن هذا الهمَّ قد تبدَّد تمامًا، ووجد نفسَه منجذبًا من جديد إلى عالَم النوم، فلم يَعُد يستطيع مقاومته، وبشكلٍ قدَري، ترك الجراثيم تغزوه من كسلٍ لا يرحم، هذا الجو من اللامبالاة السائدة الذي تعيش فيه أسرته يسمعه كلَّ يوم أكثر، وهكذا قرَّر أن يرحل بأقصى سرعة، وإلا افتقد روحَ المغامرة خلال بضعة أيام، قالت هدى: إذا فعلتَ هذا فستجعلني يائسة.

– اسكتي يا غبية، وانشغلي بعملك.

– أين ستذهب؟ يا الله! سوف تضيِّع نفسَك.

– هذا لا يعنيك.

كان واقفًا أمام النافذة، يحاول أن يبدوَ شريرًا ويحسُّ أنه يكاد أن يضعُف بسبب هذه الفتاة المتعلِّقة بالحبِ الأكثر طلاوةً من النوم، من الصعب ألا يسمعها، وعليه أن يقول لها شيئًا، وإلا فسوف تهيِّج كلَّ المنزل.

سمِعها تنتحب وهي تستدير.

– لن تجلبي النائحات.

مسحت دموعها، واقتربت منه، ومدَّت يدَها إليه في توسُّل: ابقَ، ولا تذهب.

– اسكتي يا بنت الكلبة، سيسمعْنكِ ويأتين صارخاتٍ بدورهن، كم أنا آسف أن أخبرتك أنني سأرحل.

– إذن خذني معك.

– أنت مجنونة ستكون فتاة مثلك عبئًا ثقيلًا عليَّ، يجب أن أبحث عن عمل.

– لا يمكنك أن تعمل، أنا أعرفك، سأعمل من أجلك.

– لا تقولي مثل هذه الغباءات، أنا مستعد لكل شيء من أجل ترك هذا المنزل.

أدركت أنه قرَّر، وأحسَّت بخوف متوحِّش، فماذا تفعل لتمنعه من الرحيل؟ إنها لا تجيد أمورَ الإغراء الجنسي، انتابتها رغبةٌ من الأمل فارتسمت عليها ابتسامةٌ ماكرة، فقالت: إذا رحلتَ فلن يمكنك مداعبتي.

– لا أريد مداعبتك، مَن أخبركِ أنني أريد مداعبتك؟ لديَّ شيء آخر يجب أن أفعله، ألا تفهمين؟

– ليس هذا صحيحًا.

التصقت به، وحاولت أن تثيرَ فيه الرغبة، لكنه بدا تائهًا، ودفعها بقسوة بعيدًا عنه.

– ابعدي، دعيني.

وسقطت هدى على السرير، وقد أذهلتها الصدمة، ولكنها لم تكن قد صدَّقت بعدُ، لقد فعلت كلَّ شيء من أجل الاحتفاظ به، وبحركةٍ من يدها، رفعت طرَف ثوبها، وكشفت عن وركَيها، وباعدت بين ساقيها، انتظرت لحظةً دام فيها صمتٌ موتور، ورأت نظراته المركَّزة عليها، نظرةً تائهة مليئة بالإرهاق، ارتعدت من الخوف والوجدان.

– ألا تريد؟

بدا عليه الجنون، لم يفهم شيئًا فيما يريده منها، همس بصوتٍ بائس: لا، لا أريد، أودُّ الرحيل.

أعادت ثوبَها، وقامت غاضبةً، واستعدَّت للبكاء من جديد، وقالت: سأخبر سيدي، سأمنعك من الرحيل.

– لن يمنعني أحدٌ من الرحيل؟

رآها سراج تخرج من الغرفة مضطربةً، سوف تخبرهم الآن، سيأتون جميعًا ليوبِّخوه. أسرع في ارتداء ملابسه، وتملَّكته الرغبة في أن يقاوم النصائحَ وكل الإغراءات بالتراجع.

كان رفيق أولَ مَن جاء؟

– ما هذا، هل سترحل؟
– أجل، قرَّرت أن أبحث عن عملٍ في المدينة.
بدا رفيق مندهشًا؛ فقد استيقظ لتوِّه ولم يفهم شيئًا بعدُ، لذا لم يستطِع أن يدرك مدى جسامة الموضوع، إنه أمرٌ صعب، أخيرًا قال: هل معكَ نقود؟
– ولماذا أفعل؟
– أستذهب إلى المدينة بلا مال؟
– أخبرتك أنني سأعمل، وسأكسب.
– صبيٌّ مسكين، تعتقد أنهم ينتظرونك ليقدموا لك وظيفةَ وزير!
– لا أريد أن أكون وزيرًا، ما الذي جعلك تتصوَّر هذا؟
– إذن، ماذا تريد أن تكون؟
– لا أعرف، أَعِدُك أن أكون هادئًا، وأفكِّر أنني يجب أن آخذك معي.
كان رفيق نائمًا على السرير، يفكِّر في جسامة الموقف، تخوَّف على أخيه من مضاعفة المأساة؛ ففكرة الذهاب إلى المدينة للبحث عن عملٍ هي مصيدةُ شيطان، إنها تحمل في داخلها جراثيمَ عنقودية معقَّدة تُقلِق راحتهم في كل خلواتهم، لن تنتهيَ بالسهر والانتظار، الآن فإنَّ التهديد بزواج أبيه قد انهار بظهور الأليطة، راح رفيق يعزِّي نفسَه بهذه المحاولة الجديدة لإفساد نومه، إنها دائرةٌ جهنمية، لن يخرجوا أبدًا منها، قال: اسمع، لقد اكتشفتُ سرًّا.
سأل سراج: أي سرٍّ؟
قال رفيق: أعتقد أن زواج أبيك لن يحدث، ونحن محظوظون.
قال سراج: هذه الحكاية لا تهمني، ماذا تريد مني أن أفعل إذا كان أبي سيتزوج أم لا؟
قال رفيق: أيها الخائن، لا يهمك، أريد بكل بساطة أن أخبرك أننا لن نخاطرَ بلا سبب، سيمكننا أن ننام في هدوء؛ فالحياة ستكون جميلة.
صاح سراج: لكنني لا أريد أن أنام … مَن قال لك إنني أنشدُ النوم؟
قال رفيق: لا أحدَ، ولكنَّ كلَّ الناس يحبُّون النوم … أنت متوحِّش، ولا أريد أن أضيعَ وقتي معك.
قال سراج: أنت تتعب نفسَك بلا طائل … يحب أن أذهب، ولن يستطيعَ أحدٌ إمساكي.
وسكت رفيق وغالبه النوم، بقي صامتًا لحظةً، ثم فتح عينيه قائلًا: ألستَ خائفًا؟

– ممَّ أخاف؟

قال رفيق: من الترام، إنه مرعب، إنه يدهس كلَّ يوم آلاف الناس.

قال سراج: ليس هذا صحيحًا، علينا أن ننتبِه، ولا نمشي على القضبان.

قال رفيق: ولكن هل يمكنك أن تأخذَ حِذْرك؟

– ولمَ لا، لستُ أعمى.

قال رفيق: أنت أكثرُ من الأعمى. يا الله! ستتوه في الطريق، ولن يمكنك العودةُ إلى البيت.

قال سراج: لا أهتمُّ بالعودة، من الأفضل أن تذهب لتنام، وفِّر قوَّتك لانتظار الحاجَّة زهرة، لماذا تنشغل بأمري؟

أنا لا أنشغل بأمرك يا غبي، بل أسهر ببساطة على راحتنا؛ فرحيلك سوف يولِّد حكاياتٍ لا تنتهي، وأنا لا أريد حكايات، يكفيني زواجُ أبيك، ولم نتمكَّن بعدُ من منعِ هذه الفضيحة، وأنت تريد أن تفجِّر أخرى، بشرفي سوف تقتلني.

– آه هكذا تفكِّر، كنتُ أعتقد أنَّ ذلك بسبب مشاعرك نحوي.

– أنت حمار.

كان سراج قد انتهى من ارتداء ملابسه، وراح يُعِدُّ لِفافته التي تضمُّ بعضَ الأسمال، إنَّها متاعه، وهو فخور بها؛ فهو الآن مستعدٌّ للرحيل.

في هذه اللحظة، سمِعت زمجرةً في الممر، ظهر العجوز حافظ عند الباب، يتبعه العمُّ مصطفى، وقد بدا الأمر مثيرًا بالغَ الأهمية.

– ماذا أسمع؟ تريد الرحيل؟

– نعم يا أبي.

– أين يا ابن الجاحد؟

– إلى المدينة.

هتف العجوز حافظ: المدينة، سمِعته يقول إنه يريد الرحيلَ إلى المدينة، ماذا عمِلتُ يا ربي كي يكون لي ابنٌ كهذا؟

كان العمُّ مصطفى قد وضع طربوشه على رأسه، وبصوتٍ جهوري قال لرفيق: ابعد قليلًا، اترك أباك يجلس.

تراجع رفيق نحو الحائط، جلس العجوز حافظ على طرَف السرير، تحسَّس الأليطة الملتهبة بين ساقيه، وتنفَّس بصعوبةٍ قائلًا: الآن، اشرح لي، ما هذا الجنون؟

قال سراج: ليس جنونًا، افهمني يا أبي، أريد أن أعمل.

– ليساعدنا الله! تريد أن تعمل! لماذا؟ ما الذي لا يعجبك في البيت؟

– لا يمكن أن أقول لك يا أبي؟ أنا في حاجةٍ للذهاب.

– يا جاحد، لقد أطعمتك وألبستك لسنواتٍ، وهذا هو شكرك!

– أيُّ جحودٍ في هذا؟ أريد أن أعمل يا أبي. يا له من أمرٍ غامض!

– تريد أن تلطِّخنا بالعار.

فكَّر العجوز حافظ في العار الذي سيسبِّبه رحيل سراج للعائلة، وارتعد من زواجه، فمثل هذه الفضيحة سوف تثير بالتأكيد حفيظةَ كل المحترمين، ولديه ما يكفي من المعاناة بسبب هذا المرض، على الأقل لن يظهر في ليلة عُرسه، فرحيل الشاب وإصراره على العمل سوف يجلِب لهم العار.

– يا أبي، دعني أرحل، أَعِدُك أن أعود في المساء ... ولا تقلق.

– ومَن أخبرك أنك يمكنك أن تعود؟ هل تعتقد أنك سترجع حين تشاء؟ وإذا قبض عليك البوليس؟

سأل سراج مندهشًا: ولماذا يقبض عليَّ البوليس؟

قال العجوز حافظ: بلا سبب ... هناك أيضًا التزام، والأتوبيسات والسيارات وعربات الحنطور التي يركبها كلُّ الناس، ثم هناك الحكومة، ألا تخاف من الحكومة؟

– ماذا ستفعل الحكومة لي؟

قال العجوز حافظ: الحكومة ضد المتمردين، سوف يقبضون عليك.

قال سراج: ولكنني لست ضد الحكومة.

– لن تطلب الحكومة منك تفسيراتٍ، قلتُ لك إنها سوف تحبُّك.

– لأنني أريد أن أعمل؟

– نعم، إنها أفكار مدمِّرة، كيف لا تفهم ذلك؟ أتساءل مَن رسَّخ هذه الفكرة في ذهنك! لقد وُلدت في أسرةٍ شريفة، فأرجوك لا تُفسِد سُمعتنا.

قال رفيق: خاصةً أننا نحتاجك هذه اللحظة.

بدا العجوز حافظ كأنه يجهل وجودَ رفيق، النائمِ خلفه على السرير، أحسَّ بالسخرية الكامنة وراء كلماته، لكنه تماسك وأطلق بعضَ الحمحمة المليئة بالتهديدات البعيدة، إنه لا يريد أن يفقد سيطرته على الموقف، يجب أولًا أن يفكِّر في منعِ سراج من الرحيل، أمَّا هذا الآخر فسوف يصفِّي حسابه معه فيما بعدُ.

– لماذا أنت مستيقظ؟ فالوقت لا يزال فجرًا.

إنه جلال الذي أيقظته الجلبة، جاء ليعرفَ ما يحدُث وهو يخشى من أي مأساة، قال رفيق: قرَّر أخوك أن يذهب إلى المدينة ليعمل.

قال جلال: صبيٌّ مسكين، ليكن الله في عونه.

قال رفيق: الله مع الكسالى، ليس لديه أي شيء يعمله مع خفافيش العمل.

قال جلال: أنت على حق، هل يمكنني الجلوس؟

نظر حوله، رأى السريرَ مشغولًا، فقرفص إلى جوار الحائط ووضع رأسه على ورِكَيه واستكمل نومه، قال العجوز حافظ: بشرفي، لقد نام، يا جلال، اصحَ، كلِّم أخاك، أنت الكبير، وربما يسمع كلامك، فهو لا يسمعني، أنا أبوه.

رفع جلال رأسه بتثاقُل، وقد بدا عليه التعب: تريدني أن أتكلَّم إلى مجنون، كفاني من المضايقات مع الفئران.

قال العجوز حافظ: تعالَ اسمع، سيرحل، ليس لي سلطان على هذا الصبي.

قال رفيق: دعْه يرحل، سيتعلَّم الحياة، وسيأخذ درسًا.

قام برقةٍ، واستند على طولةٍ، ونظر إلى أبيه من بين ساقيه، أراد أن يتأكد من الأليطة كانت هناك، بارزةً تحت قميص النوم، إنها أكبرُ مما تصوَّر، ابتسم بخبثٍ وتمدَّد، وقال العجوز حافظ: سأفصِّل لك بدلةً جديدة، هل أنت سعيد؟ من اليوم يمكنك الذهابُ إلى الخياط، ماذا تريد أكثر؟ أنت ترى أنني أبذل ما بوسعي كي أكون أفضل.

تأوَّه سراج: لا أريد بدلةً جديدة، أنت لا تفهمني أبدًا يا أبي.

قال العجوز حافظ: كيف تريدني أن أفهمك يا جاحد؟ هل أخرج أنا؟ هل أذهب إلى المدينة؟ ماذا لديك أكثر منَّا؟ يا الله! أنا آسف أنني أرسلتك إلى المدرسة، أخبِرني ماذا علَّموك في المدرسة؟

لم ينبِس العمُّ مصطفى بكلمة، لم يجرؤ أن يتكلَّم وإلا خانه الخوف، في الحقيقة، إنَّه الشخص الوحيد الذي يبارك هذا الرجل، ويحسُّ بفرحةٍ غامرة في هذه المغامرة الموعودة، فهو أيضًا يريد الهروبَ من هذا البيت، ويتغلَّب على النوم الذي أصبح كابوسًا، نظر إلى سراج بعينين مغرورقتين بالدموع، فلعله بعد قليل يمكنه الرحيلُ معه. قال: يا عزيزي سراج، إذا ذهبتَ إلى المدينة في أي وقت، لا تنسَ أن تمرَّ في شارع عماد الدين؛ فقد كانت شقَّتي هناك.

قال العجوز حافظ: شقَّتك! ما الذي جاء بسيرة شقتك؟

قال العمُّ مصطفى: فقط أردتُه أن يراها.

قال العجوز حافظ: هذه الأفكار في غيرِ وقتها، فأنت بمثل هذه الأفكار تدفع الطفلَ للرحيل، هل هكذا تساعدني في واجبي؟

قال رفيق: إنه يريد أن يعرِّفنا أنَّه كان يسكن في شقةٍ جميلة، يا عم مصطفى نحن نصدِّق كلامك.

قال العمُّ مصطفى: أؤكد لكم أنَّ هذه ليست أفكاري.

قال العجوز حافظ: لنترك هذه الحكاية، فأنتَ لستَ رحيمًا بأبيك العجوز.

قال العمُّ مصطفى: أنت تجعلنا بائسين.

قال سراج: لستُ مسئولًا عن أن أجعلَكم بائسين، أريد أن أعمل.

قال العجوز حافظ: كيف لا يمكننا أن نكونَ بائسين، ونحن نعرف أنك تعمل، لسنا أنانيين مثلك، فكن عاقلًا، أنت تدفعني للبكاء.

وبدأ العجوز حافظ فعلًا في البكاء، لقد قرَّر أن يجرِّب هذا كآخرِ وسيلةٍ كي يطيعَه ابنه، وسرعان ما انضم العمُّ مصطفى ولم تكن لديه أية صعوبة في أن يجعل دموعَه تنسال، لقد وصل إلى الطرَف الآخر من المأساة، ولا أحدَ يمكنه أن يفعل أكثرَ من هذا، قال سراج: حسنًا، لن أرحل، لكن أرجوك، كفَّ عن البكاء.

قال العجوز حافظ: أخيرًا! أنت الآن ولدٌ عاقل وتجعل أباك سعيدًا، فتعالَ وقبِّلني.

قال العمُّ مصطفى: الحمد لله.

اقترب سراج من أبيه وقبَّله على جبينه، وأحسَّ بالخجل والحياء.

نادى العجوز حافظ، هدى بصوتٍ حادٍّ أيقظ جلال.

– ماذا هناك؟ أين نحن؟

قال رفيق: لن يرحل.

قال جلال: أفضل، إذن فقد انتهت هذه القصة، يمكنني العودةُ إلى فراشي.

كانت هدى تنتظر في المطبخ حتى تُعلَن نتائج هذه المفاوضات العائلية، وسرعان ما راحت تلبِّي نداءَ سيِّدها، قال العجوز حافظ: تعالَي هنا، ستُعدِّين لنا اليومَ دجاجةً للغداء، هل سمِعتِني؟

استدار نحو سراج، وأكمل: سراج يا بني، لا تقلق، سوف نذهب يومًا إلى المدينة لنتنزَّه.

قال جلال: لا تضعني معك في الحسبان.

١٢

في ظلام الليل، تتلألأ المصابيح، تاركةً على طول الطريق مساحاتٍ واسعةً من الظلال الميتة، في كل مرة يصل إلى هذه الناحية ليلًا، يبطئ رفيق الخطى ويتحيَّن لحظةَ ثقة، أسرع بحثًا عن وجه إمتثال. لقد قرَّر أن يراها، لم يتردَّد كما حدث في المرة الأولى؛ فالرغبة التي تنتابه لم تترك فيه أيَّ أثرٍ من الندم والمرارة، لقد ألقاها كأمرٍ قدري، إنه يعرف الآن أن رعشة الجسد التي نسيَها منذ زمن طويل تقوده تلقائيًّا إلى خنق سعادته؛ فهو لا يودُّ سوى أن يذوق طَعم سعادة أبدية من النوم.

أحسَّ أنه أكثرُ خفةً، تدفعه قوًى هادئة رقيقة، تبدو وكأنها تحوَّلت إلى وسواس قدري، إنه متمسك بهذه الحقيقة الأساسية المختبئة في أعماق حياته، أن يبذل أقلَّ مجهود ممكن، تملؤه بالكبرياء والامتنان، أحسَّ بالاندفاع داخل إنسانيةٍ عفنة لم تكشف حقيقة طبيعته بعدُ، فغباء البشر لا حدودَ له، فأي حاجة لهم في الإثارة، إنهم دائمًا غاضبون، وغير سعداء، عندما تقف الحكمة الوحيدة أمام موقفٍ لا أهميةَ له وسلبي، فإنَّ الأمر يبدو سهلًا، وأقلُّ شخص يمكنه أن يفهم ذلك.

عندما فكَّر في المصير الذي سيلقاه لو رحل مع إمتثال، تنتاب رفيق رعشةُ رعبٍ، فلعله قد صار عبدًا من بين العبيد، وبسببِ امرأة؛ لأنها ستجبره على العمل، وستدفعه للعمل مع غبائها الأنثوي العتيد غير الواعي.

إنها المرأة التي سيراها الآن، كي يشرح لها موقفَه والمعنى الحقيقي لهجرانه، إنه لا يريد أن يترك فيما بينهما سوءَ التفاهم القائم على حبٍّ مسكين بائس، يجب أن تعرف الحقيقة، وضعَ رفيق في اعتباره أن يمشيَ فوق طريقٍ يقوده إلى إمتثال، هذا التفسير

النهائي سوف يخفِّف عنه عبئًا يثقل عليه نومه، عليه أن يتخلَّص من هذا الحب الخيالي، وأن يعطيَها صورةً طيبة عنه.

كان في أقصى حالات الإحساس بنفسه، خطا بضع خطوات متردِّدة ثم وقف؛ فهناك شخصٌ ما يجري وراءه، استدار متحديًا، سمِع ميمي يقول: ناديتكَ مرارًا، ألم تسمع؟

قال رفيق: لا، يا لغرابة أساليبك، هل تتبع خطواتي؟

قال ميمي: أبدًا، صدِّقني، ببساطة كنت أنظر من نافذة المنزل ورأيتك تمرُّ، فنزلت وراءك.

تنهَّد ميمي، بدا كأنَّ مسًّا أصابه، كان بلا سترة ويرتدي قميصًا مفتوحًا حتى الصدر، وكل شيء في هيبته يخون وقاره، فرحته الهذيانية الغامرة، قال رفيق بلهجةٍ حادة: ولماذا تمشي ورائي؟ ماذا تريد مني؟

قال ميمي وهو يبدو كأنه يكنُّ شعورًا يغيظ رفيق: أريد أن أكلمك.

– تكلَّم، فأنا أسمعك.

قال ميمي: هل يمكنني مصاحبتك، مجرَّد لحظة؟

تردَّد رفيق، ولكنَّ إحساس ميمي بالمتعة المتناهية كان أشدَّ قوةً، إنَّه يعرف المشاعر التي يكنُّها له ذلك الشابُّ المراهق، قرَّر فجأةً أن يعامله معاملةً غير طيبة، فقال وفي نبرته بعضُ المكر: أنا سعيدٌ لرؤيتك، فصاحِبني حيثما شئتَ.

قال ميمي: كم أنا محظوظ لأنني كنت أفكِّر فيك وأنت تمرُّ.

راح ميمي يعبِّر عن غبطته لهذا اللقاء الميمون الذي تمنَّاه منذ وقتٍ طويل، إنه يتصرَّف كعاشق بائس، يقوم بحركاتٍ عبثية، ويبتسم ابتسامةً عجيبة، لم يتخلَّص من مكره البارد تجاه ما تضمَّنته كلماتُ رفيق الأخيرة، اعتقد أنه نجح في الدخول إليه، أحسَّ أنَّ عليه التصرُّف بكثير من الحدَّة؛ لأن رفيق يعرفه متأهبًا دائمًا، ولا يجب مباغتته، إنه يمشي بجانبه في ظلام الطريق، لم يكفَّ عن مراقبته، يريد أن يُقنِع نفسَه بموافقته تمامًا.

مشى رفيق، بشكلٍ مختلف، إنه يعرف كلَّ شيء حول مشاعرَ تشكِّل المهانةَ لرفيقه وتُسعِد أعماقه لدرجة القلق. انتظر أن يوجِّه له ضربةً قوية، لكنَّ ميمي بدا كأنه لا يودُّ الكلام، وكأنَّ السعادة ألزمته الصمتَ.

وصلا إلى المنطقة التي تضيئها المصابيح، أحسَّ رفيق فجأةً بأنه لم يَعُد قادرًا على السيطرة على نفسه، استدار نحو ميمي وسأله: إذن، ماذا تود أن تقول؟

تردَّد ميمي؛ فقبحُ هذا السؤالِ قد باغته، بدا كأنه قد نسي كلَّ شيء، ولم يفكر سوى في فرحته، إنه بصحبة رفيق، اختفت، ابتسامته، وتمتم: ودِدتُ أن أسألك أن تأتيَ معي لترى لوحاتي، أريد أن أعرف رأيك.

قال رفيق: حسنٌ، لقد ضيَّعت وقتَك، لن آتيَ لرؤية لوحاتك؛ لأنني لا أفهم في الرسم، لن يكون لرأيي أيُّ فائدة.

قال ميمي: ليس صحيحًا، أعرِف أنك رائع؛ فأنت الشاب الوحيد الذكي في الحي كلِّه، وكلُّ الآخرين حمير.

قال رفيق: ماذا فعلتُ لتقولَ هذا؟

قال ميمي: أعرف فلسفتك في الحياة، إنها شيءٌ رائع.

تمتم رفيق: يدهشني أنك تعرف شيئًا عن فلسفتي في الحياة، وأنا لم أولِكَ أيَّ ثقة.

قال ميمي: أعرف، لكنني الوحيد الذي يفهمها، يتردَّد في الحي كلِّه الكثير من الشائعات عنك وعن أسرتك، وأنا مضطرٌّ دومًا للدفاع عنك؟

قال رفيق: إنه أمرٌ مسلٍّ، هل لي أن أعرف ماذا يقال؟

قال ميمي: يقال إنكم جميعًا كسالى، وإنكم تقبعون في كسلٍ أبدي ويحكون قصصًا غريبة تتجاوز حدودَ الخيال، ولا أجرؤ من ناحيتي أن أصدِّقها قد تتصوَّرني أبله.

سال رفيق: أيُّ قصص؟

قال ميمي: حسنٌ، لن تغفر لي، يحكون أنَّ أخاك جلال ينام أشهرًا بأكملها، وأنه يحتاج إلى إزميلٍ كي يفتح عينيه.

قال رفيق: كلُّ هذا صحيحٌ تمامًا؛ فأخي جلال نائمٌ منذ سبع سنوات، ولا يستيقظ إلا ليأكل.

توقَّف ميمي ونظر إلى رفيق، تصوَّر أنها نكتة، ولكنَّ شكلَ رفيق الجاد خدعه، فشيء كهذا ممكن، بدا مندهشًا، غيرَ قادرٍ أن ينطِق بكلمة.

نظر إليه رفيق بحدَّة، وانتظر، إنه يتسلَّى ويثير لدى ميمي حالةً من الدهشة المجنونة، بقي ساكنًا للحظة، جامدَ الوجه، ثم استكمل السيرَ في الليل، فتبِعه ميمي صامتًا.

– آه، يعجبني هذا الطراز.

– أيُّ طراز؟

– أخوك جلال، ينام لسبع سنوات، يا له من فنان!

– هل تجده في هذا فنانًا؟

– بالتأكيد، هذا ما أحاول أن أفسِّره لأغبياء الحي، إنهم يعتبرونكم كسالى.

– إنها الحقيقة، لماذا تسبُّهم؟

– قلتُ لك إنهم حمير، إنهم لا يفهمون سرَّ الجمال في هذا الكسل، أنتم أسرةٌ غريبة، وأنت يا رفيق، الرجلُ الوحيد الذكي في العالم.

– هل تعتقد؟

– لم أخطئ قط في حساباتي، ولم أفهم قط لماذا تكرهني.

ألا تحسُّ أننا الاثنين يمكننا أن نولِّد الثورةَ في هذا الحي؟

طالما أنك تعرف فلسفتي في الحياة، يجب أن تعرف أنني لا أحبُّ الصخب، وأنني معتادٌ دائمًا على الهدوء.

إنها ثورة روحية التي أتكلم عنها، سنعلِّم هؤلاء الجهلة، والمتزوجين الحكمةَ الحقيقية، أنا أعبِّر برسمي عن العدَم، خسارةٌ أنك لا تكتب، ولكنك نموذج حيٌّ وهذا يكفي.

بدا ميمي متحمسًا في كلامه، اقترب أكثرَ من رفيق، وهو يهمس له في أذنه، إنه لم يتأكَّد من الفخ الذي يضعه أمامه، فهو بالغُ السعادة لأنه يثير لديه النوايا الخبيثةَ فيما يتعلَّق ببشاشة رفيق، فمشاعره تكاد تعميه، ترك نفسَه لمعسول كلماته، يرغب في أن يطولَ الطريق، وأن يكشف له عن نفسه في هذا الليل، وبعد لحظاتٍ، أحسَّ بتهديد خفي ينمو بينه وبين صاحبه، إنها مشاعرُ غير سوية، يجاهد رفيق أن يهرب منها، بينما حاول ميمي أن يوعز لرفيق أن يبرهنَ له عن وجوده.

ابتعد رفيق عن ميمي وقد أصابه الرعب من طريقته، فاستدار نحوه ولديه رغبةٌ مفاجئة أن ينقضَّ على رقبته، ولكنه استمر، ولم يودَّ أن يكشف لعبته، انتظر أن يضلِّل ميمي أكثرَ كي يكوِّمه بضربة واحدة، لقد حان الوقت كي يضربَه، بعد أن تداخلت الأشياء معًا؛ فهو لم يودَّ أن يصرِّح لميمي أن فلسفته الخاصة في الحياة أيقظت لديه حالةً من الفضول، لقد نسي هدفَ هذا الخروج المشئوم، ولم يفكِّر سوى في إمتثال، سأله: وكيف أفسِّر لك العدَم؟

قال ميمي: أنا أرسم النجومَ بلون واحد، يوجد منها الأسود، والبعض أحمر، والآخر أخضر، حسب حالتي النفسية، المهم هو أن هذا لا يمثل شيئًا.

قال رفيق: على كلٍّ، إنه عدمٌ ملوَّن.

قال ميمي: فعلًا لقد فهمتني تمامًا، كنت أعرف بالطبع أنك ستفهمني، لقد خُلقنا كي نتفاهمَ.

أغرق هذا الفهم الذي أبداه رفيق عن رسومه ميمي في دهشة، اعتقد أنه يعيش في حُلم إلا أنَّ رفيق لم يبدِ أيَّ تعاطُف أو تسامُح نحوه، لقد نسي كلَّ جروح الماضي، سار بعينين مفتوحتين نحو السماء، وابتسم للنجوم، تعثَّر وكاد أن يسقط، استند على ذراع رفيق الذي ألقى عليه نظرةً خائفة.

– لا تلمسني؛ فأنا لا أحبُّ هذه الأساليب.

– لا تغضب، لن أفعل ذلك عن عمد، فأنت تعرف أنَّ أحدًا لم يرَ نجومي، ستكون أولَ مَن يراها.

– ستكون أولَ مَن أشكره على هذا الشرف.

– آه، لا تشكرني، إنها فرحةٌ كبيرة لي، وأنا متعجِّل لأعرفَ رأيك.

توقَّف رفيق وعقد ذراعيه، ثم نظر إلى ميمي بحدة: لا فائدة، لن آتيَ لرؤية نجومك.

هزَّ ميمي رأسه دليلَ دهشته: لماذا؟ ماذا فعلتُ لك؟ كنتَ لطيفًا، لو سمحت.

ضحِك رفيق ساخرًا: هل تعتقد أنني كنتُ لطيفًا، حسنٌ، يا عزيزي ميمي، كن أنت غبيًّا إذا اعتقدتَ هذا، لم أكن لطيفًا قط معك؟

ميمي: أعرف أنك تكرهني، لماذا تكرهنا؟

قال رفيق: أنت تعرف جيدًا أنني لا أحبُّ أساليبك، أنت كبوة منفِّرة.

قال ميمي وقد صُدم في أعماقه: أنا لستُ منفِّرًا، أنت لا تعرف ماذا أستطيع أن أفعل.

قال رفيق: لا أريد أن أعرف.

لقد أصاب ميمي في كبريائه بعمق، وأحسَّ بمتعةٍ داخلية، الآن انتهى أمره ولم يبقَ أمامه سوى أن يتخلَّص منه، استأنف سيرَه وهو يعجِّل، الخطى.

بدا ميمي منهارًا، وكأن تلك الكلمات من رفيقٍ قد أصابته بضربةٍ مميتة، بقي ساكنًا للحظة وهو يقف على حافة الطريق، لم يتوقَّع مثلَ هذه الإهانة الشديدة؛ فأي سبَّة لا يمكنها أن تجرحه بمثل هذه القسوة، لقد أصابت كلَّ غروره كفنان لا يفهمه أحد، لقد وضعه في حالةٍ معاكسة، حيث تجاهله رفيق، وهو لا يستطيع أن يحتمل هذا، أدرك فجأةً أنه وحيد، تملَّكه خوفٌ مرعب، راح يجري خلف رفيق وهو يطلق صراخاتٍ عالية، ولكنه لم ينجح في اللَّحاق به.

١٣

إنها ملوَّنة الآن، فبعد الظهيرة جاءت مجموعةٌ من الطلاب وكوَّنت حلقةً للشرب في غرفتها، يحدُث هذا لها دائمًا على الأقل مرتين أسبوعيًّا، فبينما يعتقد أولياءُ أمورهم أنهم في المدرسة يأتون لقضاء الوقت عندها ويتركون أنفسهم لنوعٍ من العربدة الصغيرة، ويُحضِرون معهم زجاجةَ كحول وسجائرَ ويصنعون الكثيرَ من الجلبة، ويتصرَّفون كمجانين، ثم يعاودون الرحيل مترنِّحين، العيون تائهة، سعداء وهم يتصوَّرون أنفسهم رجالًا، وإمتثال تحبُّ هذه الاجتماعات الودودة، وتلك المشاعر الرقيقة لهؤلاء الشباب الذين تصيبهم الهشاشة العدوانية.

يمارسون الحبَّ معها، كلٌّ بدوره، ويتبارون كأنهم في سباقٍ رياضي، ثم يتفاخر كلُّ واحد منهم أمام زملائه بقدراته الخاصة، وفي كل الأحياء يتحدَّثون عن انتصاراتهم، ولكنَّ المجد لا يدوم طويلًا، فسرعان ما تخبو الأشياء بواسطة رجولةٍ أخرى أكثرَ انفجارًا.

هذه المنافسة بين العشَّاق تسعِد إمتثال بجنون، وتخلُق حولَها أشياءَ أقرب إلى أسطورة المرأة الغارقة؛ فكل مراهقي الحي يريدون أن يبرهنوا على مواهبهم الجنسية؛ ولذا فإنَّ غرفتها لا تخلو أبدًا من العشَّاق، ومع هذا، ففي نهاية النهار تحسُّ إمتثال بالملل ولا تعرف أين تذهب لتتمدَّد، وتغيِّر القليل من الهواء، فقبل أن يُولَد الطفل، كانت تذهب دائمًا إلى السينما، ولكن الحساسية الفجَّة للأقاويل التي تتردَّد من حولها تجعلها مبتهِجة وتنسيها حقيقةَ ظروفها الحزينة، هذه الرغبة تمنعها الآن، فهي لا تستطيع أن تتركَ الطفل وحدَه، إنها مخنوقة في هذه الغرفة تبدو حياتها غيرَ محتملة، فتنسلُّ في التوتُّر والوحدة.

اقتربت من فِراش الطفل ورأت الطفلَ النائم، إنه غارقٌ في النوم بطريقةٍ غريبة طيلة الوقت، ويبدو كأنَّ حضورَ وذهاب الزبائن لا يزعجه في نومه، أحيانًا تتصوَّره إمتثال ميتًا.

وتُضطر أن تنحنيَ نحوه لتسمع أنفاسَه الرقيقة الهشة، ولمدة طويلة، تظلُّ واقفةً قريبة من فراشه وهي تتأمَّل الطفل، ثم تذهب تتمدَّد على السرير وتشرُد في التفكير.

يحدُث لها دائمًا مثلُ الآن، أن تفكِّر في رفيق، فتشعر بالرضا حين تعرف أنه في حالة عذاب وقلق؛ فزواج العجوز حافظ يبدو لها انتقامًا قدريًّا، تخيَّلت كم أنَّ هذا الحدث الكبير سوف يقلب حياةَ عشيقها القديم، لم تغفر له قط أنه هجرها، وامتثل بكل سهولة لرفض الأسرة، ولمدة طويلة تمنَّت العقاب الجسيم، وها هو أملها يتحقَّق بطريقةٍ غير متوقَّعة، ثم إنَّ رفيق محبوسٌ في دائرة المتاعب توقِعه في دوامة؛ فقد عرفت إمتثال من هدى أنَّ الشاب لم يَعُد ينام، وأنه بحاجة بكل وسيلة أن يمنع زواج أبيه.

وهي تتعجَّل لمعرفة التفاصيل الجديدة حول هذا الزواج العسِر، انتظرت زيارةَ هدى القادمة التي وعدَتها أن تقوم بها؛ فقد أصبح ألمُ رفيق هو الأملَ الوحيد الذي يعطي لحياتها معنًى.

طرق الباب، قامت من السرير، وذهبت لتفتحه، وفي ظلام السُّلم لم تستطِع أن تحدِّد وجهَ زائرها، اعتقدت أنه أحدُ زبائنها، فقالت بلا مبالاة: ادخل.

قال رفيق: إنه أنا.

كان قد دخل الغرفة وأغلق الباب خلفه.

أطلقت إمتثال صرخةً، ومدَّت يدَها للأمام كأنها تدفع ظهورَ الشبح، تراجعت نحو السرير، وأخفضت يديها، وبقيت لحظةً طويلةً مصدومةً من أثرِ الدهشة، لم تتحقَّق جيدًا من وجودِ رفيق في غرفتها، ولكنها ما لبِثت أن تماسكت، وراحت تطلق شتائمها: يا ملعون، يا ابن الكلب، ما الذي جاء بك هنا؟ لا أريد أن أراكَ.

قال رفيق: أرجوكِ كفِّي عن الصُّراخ، لم آتِ لأتشاجرَ معك، يجب أن أتكلم إليك.

صرخت إمتثال: ماذا لديك لتقوله لي، اذهب من هنا، يا مجرم، لا أريد أن أراك.

ظلَّ رفيق واقفًا وسط الغرفة وهو لا يزال لاهثًا من الجري هربًا من ميمي، والطريقة التي تركه بها بعد أن جرح كبرياء الفنان المزعج، قد أسعدته إلى حدِّ أنه وصل إلى شقةِ إمتثال دون أن يتنبَّه إلى ذلك، وعلى طول الطريق لم يفكِّر سوى في الحالة البائسة المدهشة التي ترك عليها ميمي وهو يلمع بنورٍ متدفِّق من المصابيح البعيدة، والآن هو في غرفة إمتثال. راح يفكِّر في هذا الأمر بفرحةٍ شيطانية، مرَّت لحظة طويلة، انتابته الدهشة لغضب الفتاه المجنون، ثم تثاءب، وتذكَّر أنه جاء كي يشرحَ لها بعض الأشياء، استند على

ظهر مقعد، وقال بضَعف: اسمعيني، أنا لا أستحقُّ منكِ هذه الإهانات، لماذا تعاملينني هكذا كعدوٍّ؟ لقد جئتُ كي أشرح لك ...

صاحت إمتثال في قمة غضبها: وكيف تريدني أن أعاملك، أنت الذي عذَّبتني كثيرًا؟ لعلَّك تريد أن أكونَ حاملةً للجميل! اشهدوا يا ناس على هذه البجاحة.

قال رفيق: لقد تعذَّبت أكثرَ بسببك، ولكن يجب أن أفعل، حاولي أن تفهمي، لقد جئتُ لأشرح لك.

– ماذا تشرح لي؟ أنا أعرفك أنت وأسرتك، وكلُّ الحي يعرفكم أنتم متكابرون وكسالى، ثم تجرؤ أن تأتيَ هنا كي تسخرَ مني.

– لم آتِ لأسخرَ منك أبدًا، اسمعيني، وكفِّي عن الصُّراخ، فسوف تزعجين الناس.

– أنت خائفٌ من الناس الآن؟ لا تخشَ شيئًا؛ فهذه ليست مقبرةً مثل منزلكم، هنا الناس أحياء، والصُّراخ لن يزعجهم، أريدهم أن يأتوا ويروكم، سيكون عرضًا جميلًا.

– أرجوكِ يا إمتثال، لا تثيري فضيحة.

وضحِكت في سخرية: فضيحة، الفضيحة لك ولأسرتك، لن تفلت منكم، إنهم يعرفونكم، قلتُ لك إنَّ أحدًا لن يعرف الجديد من أموركم.

وجلست على طرَف السرير، وقد كشفَت فستانها عن ساقيها العاريتين في وضعِ إغراءٍ متعارض مع الكراهية التي تنعكس من عينيها، بدت أهدأ الآن، وحلَّت الفرحة التي أنقذتها تمامًا من الانتقام مكانَ غضبها، اعتقدت أنها فهمت لماذا جاء رفيق ليراها، لقد دفعته حاجته إليها، بحثًا عن بعض البهجة، أن يتخلَّص بين ذراعيها من المعاناة التي تخنقه ... رأته مهزومًا أشدَّ مما كانت تتصوَّر، وغزا وجودَه إحساسٌ بالشفقة ولكن لم يستمرَّ طويلًا، وبسرعةٍ تملَّكها حقدٌ فتماسكت، وقالت: أعرف ما الذي جاء بك هنا، أنت مهمومٌ، هل جئتَ تحكي لي عن آلامك؟ أحذِّرك لا تنتظر مني شفقةً، فسوف أكون قاسية.

قال: لا أريد شفقتك.

– ماذا تريد إذن يا ابن الكلب؟

قال: أولًا، أريد الجلوس، فأنا متعبٌ جدًّا.

ترك نفسَه يجلس فوق المقعد، وظل ساكنًا، الظَّهر منحنٍ، والنظرة غائبة ... أطلقت إمتثال صرخةً لتمنعه من الجلوس، ولكن صوتَها انحشر وكأنها ضُربت بنوع من الفتور الذي ينبعث من الشاب فعلًا؛ فالنوم يغلب على وجوده، وهدى على حق، وأمام المظهر التائه والقريب إلى الاحتقار لرفيق، استبد بها وهنٌ شديد، واعتقدت أنها فريسة لدوامة حمقاء،

لم تستطِع مقاومةَ كل مشاعر الفتور التي انتابتها، أغلقت عينيها وكأن تعبًا مفاجئًا حلَّ بهما، ثم فتحتهما خشيةً، ونظرت إلى الشاب المنهار فوق مقعده، أحسَّت أنها خائرة حيث وجدت نفسَها أمام جثة، فكيف تتعارك مع ميت؟

لم يتحرَّك رفيق، أحسَّ أنه في أمانٍ في غرفتها، ولم يفكِّر سوى في النوم، بدا له الصمتُ الذي تبِع سباب إمتثال ملائمًا كي ينام، فجأةً اعتراه شيءٌ ما، بدا له دفء هذه الغرفة المريح أشبهَ بفخٍّ أكثرَ مكرًا من كل فخاخ العالم، فظهور جسد هذه المرأة النصف مغطًّى قد سبَّب له الغضب والدهشة، بذل ما لديه من جهد حتى لا ينظر إليها، ورغمًا عنه، فقد حطَّمته بجاذبيتها وأصبحت أكثرَ حيويةً وشبقًا، بدا كأنه لم ينم قط ونظر إليها في رعب، فما رآه يؤكِّد أنه في خطر، تقلَّبت على السرير، باعدت إمتثال ساقيها، وكشف رداؤها المفتوح كلَّ شيء كأنها تتحدَّاه بجسدها العاري، إنها تتحدَّاه بكل تأكيد ... ولكنه شيء غريب، فهو لم يحسَّ بأي رغبة في هذا الجسد المعروض عليه، كلُّ هذا يمثِّل جزءًا من عالمٍ هجره منذ زمن طويل إنه الرؤية الشاحبة لماضٍ بعيدٍ ومؤلم، أطلق تنهيدةً وتثاءب وتماسك تمامًا، ثم سقط من جديد في السكون والصمت، قالت: تكلَّم، أخبِرني ماذا تريد.

نظر إليها مرتبكًا قليلًا، لقد نسي تمامًا لماذا جاء، وحاول أن يتذكَّر: آه، لقد جئت كي أشرحَ لك لماذا هجرتُك منذ عامين، في هذه الآونة الأخيرة لم تتركي لي الفرصةَ لأفسِّر لك موقفي، لقد طردتِني ككلب، دون أن تودِّي حتى سماعي.

فاعتقادك أنني امتثلت لأبي قد ضايقني، هناك شيءٌ أريد أن أفهمك إياه جعلني أتصرَّف هكذا بنوع ...

صاحت: أبوك، أعرف جيدًا أنك ستنتهي بالكلام عنه، وبسببه أتيت هذا المساء، صدِّقني، أنا أعرف ما يدبِّره لكم، وأنا سعيدة تمامًا بهذا.

وانفجرت في ضحكٍ حادٍّ شقَّ نورَ الصباح، بينما أطلق الطفل في مهدِه أنَّة، خافتة، أكملت: إذن فهو يريد أن يتزوَّج.

قال رفيق مندهشًا من سؤال المرأة: إذن أنتِ تعرفين؟

قالت إمتثال: أجل، أعرف، وقد شكرت السماء عندما عرفت هذا الخبر، أخيرًا أستطيع أن أتمتَّع وأنا أراك مهمومًا.

قال رفيق: لا تبتسمي بمثل هذه السرعة؛ فهذا الزواج لن يتم.

– لعلك أنتَ الذي ستمنعه، يا طفل؟

قال: ربما لن يحدثَ هذا حتى، على كل حال ... هذا الزواج لن يتم، صدِّقيني، هناك شيءٌ لا تعرفينه.

– أيُّ شيء يا ملعون؟

لم يردَّ رفيق، فهِم أنها مغامرة بعيدة، الآن يلزمه أن يقول لهذه القحباء، يريدها أن تعرف كلَّ شيء.

– أيُّ شيء، أخبرني.

ابتسم بمكرٍ بادٍ، وأغلق عينيه وقال بعد لحظة صمت: إنه سرٌّ.

– ليأخذك الشيطان، ما هذا السرُّ؟

– لا أستطيع أن أخبرك به.

– يا الله، من الأفضل أن تقول كلَّ شيء، وإلا صرختُ بأعلى صوتي، وسيأتي كل الجيران هنا ويطردونك كالكلب، هيا، قُل لي أخبرني.

ورغم فتور رفيق، أحسَّ ببزوغ الأمل، وبحث عن ملجأ ممكن أمام هذا الهجوم، ولكنَّ الوقت تأخَّر كي ينصرفَ؛ فوقاحة هذه المرأة ليست لها حدود، إنه يعرفها جيدًا، فهي تستطيع إيقاظَ الحي كله، لأبسط سبب، تثير فضيحة، قال: حسنًا، طالما أنك مصرَّة، فلتعرفي أنَّ أبي المبجَّل لديه أليطة.

هتفت: أليطة؟

قال رفيق: أليطة ضخمة، كارثة حقيقية.

انحنت إمتثال للأمام ونظرت إلى رفيق بشكلٍ هذياني: لا أفهم، ما هذه الأليطة؟ أنت تسخر مني يا وسخ.

قال رفيق: هذا أمرٌ سهل الفهم، تعرفين بلا شك ما هي الأليطة، حسنًا، أبي المبجَّل لديه أليطة ضخمة كالبطيخة، ولا يمكن أن يتزوَّج بها، هل فهمتِ الآن؟

ظلَّت إمتثال ساكنةً لحظةً لِما سمِعته، ثم وجدت نفسها فريسةً لهيستريا مفاجئة وراحت تضحك بطريقة جنونية، فألقت برأسها للخلف، واهتزَّ جسدها اللدن، قال رفيق بتوسُّل: أستحلفك أن تسكتي.

بدت كأنها لم تسمعه، ظلَّت تضحك وقد استبدَّ بها هذا الإيقاع لفرحةٍ غامرة، نظر إليها رفيق، وقد اكتسى الوجه بالخوف، فمثلُ هذا المجنون سيؤدي به إلى عالَم يغوص في كافة دروب الجهل الضائعة والتائهة. أراد أن يهرُب، ولكن الخمول ألصقه بمقعده، وأحسَّ أنَّ الضحك سوف يطارده للأبد في نومه.

هدأت أخيرًا، وقالت: يا لها من أسرة، أريد أن أقتلكم جميعًا، ومع هذا فإنَّ حكاياتكم تُميتني من الضحك.

قال رفيق: ليست هذه حكايةً للضَّحك، لا تعرفين كم تعذَّبت قبل أن أعرف عن هذه الأليطة، لم أستطِع النوم، لقد أنقذتِنا من بأس بشع.

قالت إمتثال: ولا يهمك، إنها قصة جميلة، صدقني، سوف أذيعها في الحي كله.

فجأةً لم تستطِع السيطرةَ على نفسها؛ ففكرة زواج العجوز حافظ يمكن أن تفسد فعلًا بسبب هذه الأليطة اللعينة التي أسعدتها لدرجة أن الدموع اغرورقت في عينيها، وهكذا أفلتت منها فرصةُ الانتقام، واستبدَّ بها الغضب، نظرت إلى الشاب بكراهيةٍ وصاحت: ليس هذا صحيحًا.

– ما هو الذي ليس صحيحًا؟

– أنَّ لأبيك أليطة، إنها قصةٌ اخترعْتَها كي تخدعني، قُل الحقيقة يا ابن العاهرة.

قال رفيق: كلُّ ما قلته لكِ حقيقي، بشرفي، ليست هذه كذبة فلأبي أليطة، هل تريدين رؤيتها.

– اسكت يا وسخ، هل تجرؤ على مراوغتي؟

قال رفيق: معذرة، أفهمك، إنك لا يمكنك رؤيتها، ومع هذا فهي موجودة، صدِّقيني.

وجم وهو يراها في هذا الموقف الغبي، ولأول مرة منذ أن وجد نفسَه أمامها، لاحظ التغيرات التي كست ملامحها، لقد شاخ وجهها، وبدت عليه آثار دعارة مزمنة، أحسَّ رفيق نحوها بشفقةٍ عميقة، وفكَّر أنها عما قريب ستصبح عاهرةً عجوز ذات جسد منهَك، ولكن ماذا يربطه بمصير هذه المرأة؟ هناك في العالم الآلاف أمثالها، ولا يمكنها أن تضرَّه.

– اسمعيني يا إمتثال، لم أجِئ هنا لأكلمك عن الأليطة، وأستحلفك أن تكفِّي عن معاملتي كخَصم، يجب أن تعرفي لماذا هجرتك منذ عامين … وأن تسامحيني، لقد اعتقدت أنني أطعتُ أبي، وليس هذا صحيحًا، والحقيقة أنني كنت خائفًا.

سألت إمتثال: كنت خائفًا من ماذا؟

– كنت خائفًا من كلِّ ما هو ليس مجودًا في منزلنا، من كل شيء يتحرك ويسير بلا فائدة في الحياة، فعندما أغادر سريري، أشعر أنَّ كمًّا من الأشياء المشئومة يمكن أن تحدث لي، لا أحسُّ بالسكينة إلا وأنا نائم، وهذا أمر سهل، فلا أحبُّ أن أبذل جهدًا.

صاحت إمتثال: أنا لا أبذل جهدًا، هل جئتَ لتحكي لي هذه الغباءات يا ابن الكلب؟

– أجل، أريد منذ زمن طويل أن أجعلك تفهمين الحقيقةَ التي أبعدتنا … كنتُ أعرف أنك تريدين أن أهجرك، ولكن الآن، أنتِ على حق، أتمنى أن تسامحيني.

قالت إمتثال: أسامحك، هل تعتقد أنني تعذَّبت طوال السنتين وتأتي لتحكي لي قصصًا؟ كيف يمكنني أن أصدِّق توبتك؟

قال رفيق: لكنني لم أتُب لنفسي؛ فأفكاري منذ سنتين هي نفس أفكاري اليوم، كلُّ ما أرغب فيه أن تفهمي أنَّ أبي لم يتدخَّل في قراري، وأنَّ همي هو رغبتي في أن أفلت بنفسي وأن أهجرك.

قالت إمتثال: أعرف أنك كسول، وأفهم هذا جيدًا، وأنك لستَ في حاجة لأن تقول ذلك، ولكنني تمنيت بحبك لي أن تفعل أيَّ شيء كي تهزم هذا الكسل، يمكنك أن تعمل وتكسب حياتك دن الاعتماد على أبيك، سنعيش سعيدَين معًا.

هتف رفيق: عمل! أكسب حياتي! هذا ما تفكرين فيه، وتزعمين أنك تحبينني! إذن ماذا كنتِ ستفعلين لو لم تكوني تحبينني؟! بمثل هذا الأفكار يمكنكِ أن تقتلي أنسانًا، لا يا إمتثال، أنا لم أُخلَق كي أعمل.

– ماذا تودُّ أن تفعل إذن؟

– أنا أنام وأعيش في ركنٍ بعيدًا عن الناس، اسمعي يا إمتثال، أنا أخاف من الناس، إنهم مجرمون مثلك يريدون دائمًا أن يجعلوا الآخرين يعملون.

– بل أنت المجنون، ثم إنَّ أسرتك كلَّها من العاطلين، ملعون اليوم الذي عرفتك فيه وأحببتك.

كانت لا تزال جالسةً على السرير، نظرت إليه في صمتٍ وعناد، هذا الرجل الذي أحبَّته يبدو أمامها شخصًا غريبًا مصابًا بمرضٍ معدٍ، لم تشكَّ قط في أنَّ هذا الكسل قد يصل إلى حدِّ الجنون، سكتت، وقد سيطر عليها الخوف، وتساءلت بأي حيلة يمكنها أن تتخلَّص منه.

أحسَّ رفيق بهدوء عميق يغزوه، بدأ في تجربةٍ شديدة الملل حيث انتابه شعورٌ هائل بالرغبة في النوم، عمَّ يبحث عنه في هذه المرأة؟ تفسير؟ كان عليه أن يتأكَّد من أنها لن تفهم شيئًا.

إنها مثل الآخرين غارقةٌ في حياة بائسة، قشرية، ومستعدة أن تقلب الأرض من أجل حكاية حب، لا تستطيع أن تظل في سكينة، عليها أن تتحرك طيلةَ الوقت، وتثير الآخرين، نظر إليها بحدة، واندهش من هذا المرأة العارية التي أحبَّها يومَا، اقترب أكثرَ منها دون أن تنتابَه أيُّ رغبة لمداعبتها، لقد وصل لدرجةٍ كرِه فيها مداعباتها، أصبحت نحيفة كأنها أمرٌ يسبِّب التعب، أدار ناظريه، وفتح فمَه كي يتثاءب، لكنه سرعان ما توقَّف، وارتبك حين وقع بصره على فراش الطفل.

انتابه شعور غريب، تردَّد لحظة، واقترب وراح يهزُّ الفِراش وينظر إلى الطفل النائم، وإمتثال تراقبه بعينين جامدتين قلقتين، قائلًا: إنه نائم.

قالت إمتثال: نعم إنه كسول مثلك، لكنه ليس ابنك.

– أعرف، على كلٍّ، فأنا أحب هذا الطفل، لأنه ينام جيدًا، لا تكلِّميه أبدًا عن العمل.

ثم استدار ونظر إلى إمتثال، وعيناه نصفا مفتوحتين، كأنه ضائعٌ في حُلم لذيذ، قال متوسلًا: دعيني أنام لحظةً في سريرك، أستحلفك، ليس أكثر من لحظة، وسأذهب بعد ذلك فورًا.

بدت إمتثال مخنوقةً، خائرةَ القوى، كأنها انهزمت أمام هذا الفتور المتناهي الذي لا يمكن لقوةٍ أن تضربه، انفجرت باكية، وراحت تشدُّ شعرها وهي تطلق صرخاتها النارية، بينما اقترب رفيق منها ببطء وقد أزعجه صراخها، فانهار فجأةً فوق السرير ووضع كافة متاعبه الثقيلة في النوم.

١٤

منذ قليل، والعجوز حافظ يجلس فوق سريره يتأمَّل أليطته بنظرةٍ تملؤها الدهشة والخوف، وفي كل يقظة يغمره منظرُ عاهته بالأفكار الكثيفة، ويلملم القميص حتى بطنه ويربِّت بيدٍ مرتجفة على الجُرح المتضخِّم الذي لا يتوقَّف عن النمو وعن احتقاره له؛ فالطريقة التي تكبر بها يومًا وراء يوم أشبهُ بالمعجزة، تبدو الأليطة كأنها معجبة بإزعاجه، بشكلها هذا الأكثر غرابةً، لم يصدِّق العجوز حافظ نفسَه؛ فالأمر لا يتجاوز حدودَ الواقع، والدمامة، بلا شك، فإنَّ الشيء يلطمه بهذه الطريقة، بنيةِ إهانته، ليست هذه خطةً مدبَّرة من أبنائه كي يتراجع عن زواجه؟

فهؤلاء الصغار قادرون على تحدياتٍ أقوى، ومع ذلك، فإنَّ العجوز حافظ لم يتمكَّن من فهْم السخرية الآلية، والمعقَّدة التي وراء هذه الحكاية؛ فروحه عاجزة عن متابعةِ ما وراء هذه المؤامرة المرعبة، يا له من عبثٍ يكشف حقيقةً لم يسبق أن أزعجته قط؛ فهو شخصٌ عنيد لا يريد أن يكتئب يأسًا، ولا أن يستسلم لفشله، لقد نوى أن ينزل لتوِّه إلى الدور الأرضي كي يُبلِغ أبناءه أنه اكتشف مؤامراتهم وليجبرهم على احترامه، لكن منعة غرورهم وألاعيبهم نحوه.

أحسَّ بالضيق وهو يتأمَّل عاهته، أعاد قميصه، وراح يغطيها، وهو يتأوَّه على طريقته، كيف يمكن أن يتسم هذا الزواج الذي يودُّ أن يتمتَّع به في سنوات شيخوخته؟ فكل شيء يتآمر عليه، ويتركه، فالحاجَّة زهرة لم تفِ بوعدها منذ أن وعدته في زيارتها الأخيرة بأشياءَ مثيرة.

لقد نسيت بلا شك، ولم يَعُد لديه ما يؤنس وحدته سوى منظر أليطته المثير للرثاء، إنه وجده أمام هذه الأليطة المؤلمة، التي يحسُّ بها تتضخم بين ساقيه بلا حدود، وتملأ السرير بضخامةٍ غير مألوفة.

وكي يهرب من وساوسه، أمسك الصحيفةَ التي وضعها على المنضدة، وفتحها، إنها صحيفةٌ قديمة، مصفرة الأوراق، طُمست فيها أحرفُ الطباعة مع الزمن مما يعطي القارئَ وقائعَ مشاكلِ حياته مع العالم، فما إن قرأ بعضَ السطور حتى أحسَّ بحلول التعب ونام.

وبعد لحظة استيقظ على صوتِ شخصٍ ينادي اسمه بصوتٍ وقور مخنوق: حافظ بيه.

فتح عينيه فجأة، بدا له أنَّ النداءات آتيةٌ من بعيد، من خارج المنزل تقريبًا، اعتقد أنه يحلُم وأراد أن يستأنف النوم، وعندما رأى هيكلًا أسودَ واقفًا في إطار الباب: آه، أنتِ، ادخلي ماذا جرى لك يا امرأة؟

قالت الحاجَّة زهرة: لقد انشغلت عليك.

كانت تلهث: وأثار لهاثها ضجةً أشبه بماكينة بخار، راحت تشكو لتوها: يا لها من سلالم بائسة؟ لم أعُد في سنٍّ أقدِر على الصعود إلا من أجلك.

وتقدَّمت في الغرفة، ضخمة ولدنة، وقد التفَّت ملاءتها السوداء حول جسدها، وفي كل حركة من حركاتها يهتز صدرها الضخم بطريقةٍ مرعبة، وسرعان ما امتلأت الغرفة بوجودها.

اعتدل العجوز حافظ في مقعده كي يتأمَّلها، فظهور الحاجَّة زهرة المفاجئ أمرٌ يدعو إلى التفاؤل ولا شكَّ أنَّ فيه حلًا لمشكلته، قال: هيا، اجلسي، واحكي لي الأخبار.

قالت الحاجَّة زهرة: اتركني لأخذ نفسي.

وقرفصَت أرضًا، ولفَّت ملاءتها حولها، وعدَّلت بكل حذرٍ من جسدها الضخم في إطارها الضخم، ثم ظلَّت ساكنة، راسخة مثل القدَر؛ فقد شعرت وهي تصل إلى هدفها بحيويةٍ ورضاء، فلا شكَّ أنَّ الجحيم بعينه هو أن تجرَّ جسدها اللدن المنتفخ، الثقيل من أثرِ الشحم، عبْر بيوت الأثرياء تدفعها مهنتها كخاطبة؛ فقد يحدُث أن تعلَق في إحدى المرات، أصبح من الصعب عليها أن تتحرَّك بعد أن كفَّت عن اللهاث، ولكنها لم تقل شيئًا، فروحها الجشعة المعبَّقة بالطمع تعرف الثَّمن الذي وراء الصمت الذي يسبق البوح، سألها العجوز حافظ: ماذا فعلتِ لتصلي إلى هنا، ألم يرَكِ الأولاد؟

– لم أقابل أحدًا.

– أحسن، لعلهم نائمون، إنها ساعة القيلولة، على كل حال، إذا منعوك من الصعود فاصرخي، وسأنزل كي أعيدهم إلى صوابهم.

تأوَّهت الحاجَّة زهرة: لماذا يمنعونني من الصعود؟ ماذا فعلت لهم؟ يا الله! أنا امرأة مسكينة.

لم تكن الحاجَّة زهرة تجهل شيئًا عن متاعب العجوز حافظ التي يعانيها مع أبنائه منذ أن أعلن عن رغبته في الزواج، ولكنها تجب أن تلعب دورَ الكتومة، وتمثِّل دور الشهيد، فإنَّ حسَّها المهني يدفعها إلى هذا السلوك، قال العجوز حافظ: إنهم يعرفون أنك مهتمةٌ بزواجي.

وانتحبت الحاجَّة زهرة: وماذا بعد؟ إنهم لم يروني، ومع ذلك يشكُّون، أنا لم أقدِّم لكَ فتاةً عوراء أو حدباء، كما أعرف، فعندما يرونها لن يصدِّقوا أعينهم.

– الأمر لا يتعلَّق بهذا؛ فالأولاد لا يريدونني أن أتزوَّج، لكن لا تهتمي، سيتم هذا الزواج رغمًا عنهم، وسيعرفون جيدًا أنني ربُّ البيت.

– يا الله، ماذا، إنهم قطَّاع طرق، سوف أنهشهم، والآن دعي هؤلاء الأطفال للشيطان واحكي ماذا فعلتِ.

تنهَّدت الحاجَّة زهرة وبدت كأنها في مناحة، وعليها أن تعبُر أحزانها أمام مصائب العالم التي تحوطها.

– أتمنى أن تكون ابنةَ أسرة طيبة.

– أسرة طيبة، ماذا تعتقد يا حافظ بيه؟ هل تعتقد أنني سأقدم لك فتاةً غلبانة، يا الله إنَّ لها أسرة، وأي أسرة، وكي تنال رضاهم، عليك أن تعيش عندهم أسبوعًا.

أراد العجوز حافظ أن يتجاوز هذه المبالغة الزائدة، ولكن القلق الذي ساد في هذه اللحظة قد تجاوزه ناحيةً أخرى فراح يتكلم: ولماذا؟ أتمنى أن تخبريهم مَن أنا؟

– طبعًا، ولكن الفتاة لم تتعدَّ السادسة عشرة، وتتمنى لو تزوجت أميرًا.

ردَّد الحاج حافظ: إنها حمقاء.

أجابت الحاجَّة زهرة: وهذا ما حاولت أن أجعلها تفهمه طوال أسبوع، فهم لم يصدقوا كلَّ ما قلته عن ثروتك واسمك، تردَّدوا، وفي النهاية أخبرهم أنه السُّكر.

سأل العجوز حافظ دون أن ينتبه إلى هذا المرض الذي يسمع عنه: ماذا.

– في البداية لمعت وجوههم، ثم ابتسموا وقالوا لي: «إذا كان هذا صحيحًا فلا بد أن يكون رجلًا مرتاحًا»، فأجابت: «هل رأيتم قط يا ناس، شحاذين بالسُّكر؟ بشرفي؟ ماذا ينقصكم؟ وعند هذه النقطة وافقوا.»

قال العجوز حافظ: حسنًا، أنتِ امرأة واسعةُ الحيلة، ولن أنسى مكافأتك.

قالت الحاجَّة زهرة، وقد بدت عليها العزة والكرامة، أنا لا أفعل هذا من أجل المكافأة. أحبُّ أن أؤديَ الخدمات للناس، وأنت تعرف الاحترام الذي أكنه لأسرتك، أنا أفعل ذلك من أجلك؟ فأنتم نوارة الحي.

ولأن العجوز حافظ يحب الوقار، فقد أعادت له هذه الكلمات وضعَه الاجتماعي؛ فهو لم يتلقَّ مثل هذا التوقير، منذ أن قطع علاقاته بالعالم؛ فالوقار الذي تكنُّه الحاجَّة زهرة يقوده إلى الرضاء الروحي الذي يفتقده منذ أمدٍ، رغم علمِه أنَّ الأمر كله عمليةٌ تجارية، تململ على سريره، ومرَّر يدَه على وجهه، ثم بدا كأنه يتذكَّر فجأة أمرًا هامًّا: ولكن يا حاجَّة زهرة، ما رأيك؟ فأنا لست مصابًا بالسُّكر؟

تراجعت الحاجَّة زهرة وحاولت أن تعرض جسدَها الضخم فوق أرضيةٍ تماسكت، وقالت وهي تلهث بقوة: وماذا بعدُ؟ ماذا يعني هذا؟ إنه أمرٌ يدعو للرثاء.

قال العجوز حافظ: ومع هذا فهو مَرض.

– إنه مَرض الأثرياء، وعليك أن تعطي نفْسَك حقَّها، صدقني. أعرف ماذا أفعل.

تردَّد العجوز حافظ بضع ثوانٍ، وفكَّر في الأليطة وتساءل: هل هذا المرض، الذي تضخم لتوه يمكن أن يُعتبر عاهة، ويمكن أن تكون عائقًا، هذه الفكرة أسعدته، وسأل بدون وعيٍّ: هل أنتِ واثقة مما قلتِ يا امرأة؟

– بالتأكيد، اقطع ذراعي إذا كذبت.

ودام صمتٌ، طرد العجوز حافظ الأفكارَ السيئة عن نفسِه، وتمدَّد على سريره ثم رمى نفسَه في أحلام الشيخوخة حول زواجه المقبل، كانت أضواءُ ما بعد الظهيرة تُغرِق ... الغرفة وتمنعه من الرؤى الرائعة التي بدأت في نهشه، أغلق عينيه، وبقي تائهًا لفترة طويلة في سعادة غامرة، ثم خاف من الصمت الذي يغزوه، وبدا أنَّ هذا الصمت يخفي أشياءَ قذرةً عفِنة تحاول أن تتغلغل فيه، وكي يبدِّد طمأنينته، أحسَّ بالعَرق يغطي كافة أعضائه، فتح عينيه، وأطلق تنهيدةً عميقة، ثم استدار نحو الحاجَّة زهرة، وألقى عليها نظرةً باردة.

اعتمدت الحاجَّة زهرة على اختيار أفضل الوسائل التي تستخدمها كي تحصلَ على أفضل مكسب من الموقف، فعندما تنهَّد العجوز حافظ قاطعًا أفكاره المسكينة، اعتقدت أنه تم كشفها فتأوَّهت بكل جسدها اللدن، أعادت أطراف ملاءتها بشكلٍ غريزي حول خاصريها ثم أسندت كوعَها على ركبتها، ونظرت للأمام وسألت بصوتٍ أجشَّ: لماذا هذه التنهيدة؟ ممَّ تخشى؟

فتح العجوز حافظ فمَه، بوجهه الأشبه بمومياء مرعبة وراح يئن ببعض أنين الشكوى.

كرَّرت الحاجَّة زهرة: ممَّ تخشى؟ أنت عريس جديد، ماذا يزعجك؟

وبذل العجوز حافظ جهدًا، وقرَّر أن يتكلم: يجب أن أخبرك بشيء.

قالت الحاجَّة زهرة: أسمعك، ماذا هناك؟

– هل تعرفين أنَّ الأليطة تتضخَّم يومًا بعد يوم، وهذا أمرٌ لا يجب إنكاره.

– كيف هذا؟ في آخرِ مرة قلت لي إنها بدأت في الانكماش، ماذا استجد الآن؟

صرخ العجوز حافظ: يا الله لا أعرف؟

قالت الحاجَّة زهرة: مستحيل!

قال العجوز حافظ: أشكُّ أنَّ الأولاد قد يلعبون بي لعبةً شريرة.

– الأولاد! ماذا يفعل الأولاد هنا؟ أنا لا أفهم.

– إنه أمرٌ بسيط، إنهم الذين يسيطرون، ويريدون منعي من الزواج، هؤلاء الأبالسة.

سألت زهرة وقد تسلَّحت تقريبًا بروح شريرة: ولكن كيف يأخذون الأمر؟

– لا أعرف، ومع هذا فأنا أشكُّ فيهم بشدة.

هزَّت الحاجَّة زهرة رأسَها، وأدركت أنَّ العجوز قد أصبح أكثرَ تساهلًا، ولكن هذا لا يعني بالنسبة لها سوى الإحساس بالاستياء، ثم إنَّ هذا ليس ضربًا من المستحيل؛ فالأبالسة قادرون على كل شيء، فالأليطة يجب أن تكون بالنسبة لهم لعبةً ساخرة.

فجأةً دفعتها مصلحتها أن تهدِّئ من خشية العجوز: ولكن يا حافظ بيه، الأولاد لا يمكنهم أن يفعلوا شيئًا كهذا، أنت أبوهم قبل أي شيء.

– إنَّهم قطَّاع طرق، صدِّقيني، لكن الأمر لا يتوقف فقط عند هذا، فأنا قلقٌ لشيء آخر، أخبريني، ألا تعتقدين أنَّ هذا قد يفسِد زواجي؟ فعلًا أنت تؤلمني يا حافظ.

– إذن، ما هو الشيء الذي لا يثير قلقًا؟

قالت الحاجَّة زهرة: رجلٌ مثلك، قوي وجميل كالأسد، تقلق من أجل أليطة صغيرة، مسكين.

– ألا تريدين رؤيتها؟

قالت الحاجَّة زهرة: أريد، ماذا يمكن أن أفعل من أجلك؟

– إذن، قومي وتعالي، أريد أن أعرف رأيك؟

– لقد قلتُه لك توًّا، يا الله، تخاف من دملٍ بسيط.

وضعت الحاجَّة زهرة ملاءتها حول جسدها، وتنهَّدت طويلًا كي تُعِدَّ نفسَها للمجهود الذي ستبذله، ثم بحركةٍ بطيئة مأخوذة في الحسبان، تمكَّنت من الوقوف.

عندما اقتربت من السرير، رفع العجوز حافظ الغطاءَ، وكشف أسفلَ بطنه، بدت الأليطة بين ساقيه، تصعد حتى عضوه الضامر، أشبه بكرة قدم منفوخة عن آخرها، عند هذا المنظر، ورغم شجاعتها، وشهرتها كامرأة قوية الشكيمة، لم تستطِع سوى أن تطلق تنهيدةَ رعب، سأل العجوز حافظ: ما رأيك؟

أجابته الحاجَّة زهرة: لا شيء، كما توقَّعت من قبلُ، أنت خائف بلا سبب.

– إنها ضخمة، أليس كذلك؟

– ماذا تقول، كيف ترى أنها ضخمة، بشرفي يا حافظ بيه، أنت تحلم.

– ربما، في الحقيقة، لعله حلم.

قالت الحاجَّة زهرة: أبدًا، سوف أدلكها لك، سترى، سوف تختفي خلال دقائق، فقط دعني أفعل.

وانحنَت عليه، وبيدٍ خبيرة، مرَّرت أصابعها حول الأليطة، في البداية ارتعشت عندما لمست هذا الجلد الجامد كالحجر، ولكنَّ خطورته قد دامت مدةً أطول، بسرعةٍ نسيت ما الذي جاء بها إلى هذا المنزل ومهمَّتها كخاطبة، فلا يوجد بالنسبة لها سوى هذا الشيء الغريب الذي تمسكه أصابعها برقة، ويسحرها بفحشه القاسي.

استيقظ رفيق فجأةً، كان نائمًا على أريكةِ غرفة الطعام، بينما كان يترقَّب قدومَ الحاجَّة زهرة، دعكَ عينيه، وتساءل منذ متى هو نائم، وثقلت عليه فكرة أنه فشل في مهمته، وعم إذا كانت الحاجَّة زهرة قد جاءت أثناء نومه؟ اعتقد أنه سمِع همسًا في الطابق العلوي، ملأ أذنه، ولكنَّ شيئًا لم يؤكِّد إحساسه، تمطَّى وقد انتابه ألم، وأحسَّ بالإنهاك وأنَّ أعضاءه ثقيلة من التعب الشديد، لقد حلَم أنه يعمل حمَّالًا في محطة قطار، وأنَّ مسافرًا غريبَ الأطوار يرتدي طربوشًا أصفرَ كلَّفه بحملِ صندوق كبير، إنه صندوق ضخم، لم يعرف رفيق كيف يمكنه أن يرفعه فوق ظهره، مشى خلف المسافر وخرجَا من المحطة، مشى المسافر بخطًى بطيئة وعبَر الشوارع الطويلة التي لا تنتهي، وراح يمرُّ فوق الأرصفة دومًا وبدا أنه غير مبالٍ بالوصول إلى أي مكان، أحيانًا يتصرَّف بسعادة ماكرة وهو يتجوَّل في الحواري الضيقة ورفيق يحمل الصندوق فوق ظهره، ولا يستطيع المشيَ إلا بمعجزة، استغرقت الجولة وقتًا لا نهايةَ له، راح رفيق يلهث وهو يتتبَّع هذا المسافر الغريب، حطَّم ثقل الصندوق أعضاءه، إنه في كل لحظة مستعد أن ينوء تحت حمله، وفجأةً أبطأ المسافر الخطوة، وبدا كأنه يبحث عن شيء حوله، ثم بحركةٍ محسوبة استدار وانفجر ضاحكًا في وجهه، بوغت رفيق، وترك الصندوقَ يسقط، وهرول وهو يصرخ في رعب، ثم استيقظ.

إنه لا يزال يحتفظ في أذنه بضحكات المسافر الساخرة، إنها ليست المرة الأولى التي يسمعها، إنها نفس الضحكة التي سمِعها عند إمتثال، تذكَّر زيارته للعاهرة وأحسَّ بالسعادة لأنه تخلَّص للأبد من هذا الحب المدمِّر، لقد انتهى كلُّ شيء معها الآن، ولن تمنعه ذكرياته أن يغرق بلا أيِّ مرارة في بهجة النوم الدائم، لا يثقل عليه الآن، فقد شرح لها كلَّ شيء، ولكن هل فهمت؟ لا يهم، لقد قاطع الماضي تمامًا، ولن يكون بعد ذلك فريسةً للندم الذي يؤرِّقه منذ عامين.

ستكون الحياة رائعة، لو تمكَّن من منع أبيه من الزواج، هذه الكارثة المحتملة توجِب عليه اليقظةَ الدائمة، حقًّا أنَّ هناك أليطة، ولكن الأليطة لن توقِف الحاجَّة زهرة عن رغبتها في المكسب، فهي قادرة أن تجد في أليطة العجوز حافظ وسيلةً لإثراءٍ مضمون، وأن تُظهِره كأنه نوعٌ من المجد، ورفيق لم يشكَّ أنَّ عليه أن يفتح عينيه، فأقلُّ تغافُل من طرفه قد يخاطر أن يفسد كلَّ شيء، توصَّل أنَّ عليه منْعَ الحاجَّة زهرة من دخول البيت، وعند الضرورة سوف يضربها رغم بدانتها.

قام من فوق الأريكة، ولفَّ حول المائدة ونظر من النافذة، كانت أشعة الشمس تملأ المنزل، إنه مغلق النوافذ دائمًا، فكَّر في النساء اللاتي يحتفظ بهن الرجال الغيورون سجيناتٍ، وهنَّأ نفسَه أنه في مأمن، يحميه منهن الجدران لأنهن يحاولن بلا شك أن يغرينه، بابتسامتهن الغبية وعيونهن التي تشبه عيونَ عاهراتٍ شريفات، إنه لا يستطيع أن يسرق مكرَ هؤلاء الإناث اللاتي يتعاملن مع الحياء بدون حواديت، ولا قصص فاضحة.

ومن جديد سمِع همساتٍ، ولكنها هذه المرة أكثرُ جِدية، فهِم بشكٍّ غريزي أنَّ هناك صوتًا في غرفة العجوز حافظ، جرى نحو الممر وتوقَّف أسفلَ السُّلم، ورفع رأسه وتنصَّت، أنه بالتأكيد ما ينتظره، فالحاجَّة زهرة موجودةٌ بأعلى عند أبيه، لقد صعِدت وهو نائم كالأبله.

صعِد السُّلم ببطء، حرص ألا يصدر أي صوت على درجات السُّلم، أراد مفاجأة الحاجَّة زهرة وأن يخفيها.

كان باب الغرفة مفتوحًا، وباغته المنظر الذي فرض نفسَه أمامه، لم يجرؤ أن يصدِّق عينيه؛ فالحاجَّة زهرة واقفةٌ بالقرب من السرير منحنية نحو أبيه، وتبدو كأنها تمسك بيديها شيئًا خفيًّا يحتفظ به العجوز بين ساقيه، إنها الأليطة، قفز رفيق ووجد نفسَه وسط الغرفة.

هتف العجوز حافظ دون أن يفكِّر في إخفاء عورته العارية: أنت يا حرامي.

قال رفيق: نعم ... أنا ... سوف أقتلها، هذه الفاحشة العاهرة.

رفعت الحاجَّة زهرة يدَها في الهواء مبغوتة ومرتعدة، أرادت أن تتكلم، لكن حنجرتها خنقتها بالمعاناة، ولم يصدر عنها سوى تأوُّهات خافتة، انهار جسدُها الضخم تحت التهديد، اقترب رفيق منها، وجذبها من ذراعيها نحو الباب، ثم ركلها في مؤخرتها فدحرجها على السُّلم، وهربت مثل زوبعة عبْر المنزل النائم.

أما العجوز حافظ، فراح يصرخ بصوتٍ مخنوق: العسكري، هاتوا العسكري، امسك حرا...

١٥

وقف العم مصطفى في الممر، يبرم شاربَه بعصبية، لقد وجد نفسَه أمام تجربةٍ قاسية؛ فأخوه العجوز حافظ كلَّفه بمهمةٍ حساسة وأمرٍ بالغ الصعوبة، عليه أن يوقظ جلال، أن يجعله يصعد لرؤية أبيه، أراد العجوز حافظ أن يتكلَّم ابنه الكبير عن الأحداث الأخيرة التي دارت في المنزل؛ فالعم مصطفى لم يستطِع رفْضَ المهمة، وهو الآن فريسة لمتناقضات غريبة، فإيقاظ جلال ليس عملًا سهلًا، ولكن قيامه بالصعود هو بلا شكٍّ عينُ الجنون.

فجأةً، وبعد الكثير من التردُّد قرَّر العم مصطفى مواجهةَ الخطر، ودخل غرفة جلال وكأنه كان ينتظره، وجد الشابَّ غارقًا في نوم عميق، الوجه هزيل وشاحب وكأنه جثة، يتنفس جلال بصعوبة، ويبدو كأنه يزفر الحياة التي تركها منذ زمن طويل، بقي العم مصطفى متردِّدًا للحظة، أحسَّ بالخوف من الأمر الذي أوجده أمام هذا المشهد، ثم مدَّ يده ولمس جلال في كتفه، ولكن هذه اللمسة الخفيفة لم تترك أثرًا على نوم جلال، تجرَّأ العم مصطفى أكثرَ وهزَّه بشدة، بدا الشاب كأنه يتعارك في حُلم، تأوَّه مزمجرًا، ثم فتح عينيه أخيرًا، وكأنه خارجٌ من المقبرة.

– حسنًا، ماذا بك يا رجل؟

قال العم مصطفى: أبوك؟

– أبي، هل مات؟

– معاذ الله! بل يرغب في أن يكلمك.

استدار جلال بقوة نحو الحائط، وكأنه يلمح أنَّ هذا الأمر لا يهمه: بشرفي، إنه مجنون.

قال العم مصطفى: الأمر خطيرٌ جدًّا، يا عزيزي جلال، أستحلفك أن تقوم.

قال جلال: أبدًا، ستكون نهاية العالم، أخبِره أنه ليس لديَّ وقت، ما حاجته في أن يراني؟

– قلت لك إنه يريد أن يكلمك.

– يكلمني! يا لها من فكرة! ولماذا يريد أن يكلمني؟

– لا أعرف، ولكنني أؤكد لك أنَّ الأمر مهم.

– يا رجل، ليس هناك شيءٌ مهم يجعلني أترك سريري.

إنه رفضٌ غير نهائي، لكن العم مصطفى اعتاد كثيرًا على هذه النظريات التشاؤمية والهمجية المتعلِّقة بالنوم والتي صدمته دومًا؛ فصبره ليس مستعدًّا أن يطول، وهكذا لم يصبه اليأس للوصول إلى هدفه، انتظر لحظةً، ثم قال بلهجة مهيبة: سوف يغضب أبوك.

– فليغضب، أحسن، فلعله يدعني أنام.

– اسمع يا بني يا جلال، أقسم لك أنَّ الأمر لن يستغرق سوى لحظة واحدة، فافعل ذلك من أجل خاطري.

– تريدني أن أموت من أجلك يا رجل، يا لها من وسيلة توقظني في الفجر كي أصابَ ببرد، أليس لديك رحمة؟

قال العم مصطفى: الساعة الآن عشرة، ولن تصاب ببرد، فالجو لطيف، هيا، يا جلال يا بني، فالأمر لن يستغرق دقائق، ثم إنَّ تغيير الهواء سيفتح شهيتك ... فقد اقترب الغداء.

تأوَّه جلال: والسُّلم، ماذا تقول عن السُّلم يا رجل؟

– السُّلم؟

– نعم، السُّلم للصعود لأعلى؟

– ماذا؟

– هل تتصورني عاملَ بناء، أنا لا أستطيع صعودَ السُّلم أبدًا، قال العم مصطفى: لا تفعل، سوف أساعدك، ولن تبذل مجهودًا.

قال جلال: لن اصعد إلا إذا حملتني.

وعدَه العم مصطفى: سأبذل كلَّ ما بوسعي.

بدا العم مصطفى سعيدًا بهذا النجاح؛ فهو لم يتوقَّع أن يكون الأمر بهذه السهولة. غرس طربوشَه في رأسه سريره، لكنَّ الشاب بدا كأنه لا يودُّ أن يتحرك، وتمثَّلت أمامه مهمةٌ صعبة؛ فأمامه وقتٌ طويل قبل أن يستردَّ وعيه؛ ففي كل مرة يقوم بفتح عينيه سرعان ما يغلقهما، لم ينجح في أن يحتفظ بهما مفتوحتين، وفي النهاية أصابه اليأس، ولم يبذل أيَّ

مجهود لفتحهما، وصار نحو عمِّه كأنه شخص ضرير، هذا الذي وضع ذراعه حول كتفه، وأخذ يساعده في الخروج من الممر.

جلس العجوز حافظ ينتظرهما في سريره، منتفخًا كامرأة حامل وقد ظهرت الأليطة عبْر الملاءة، اتخذ كامل هيئته وهو يستقبل ابنه، وجاهد في الاحتفاظ بكرامته وسيادته قائلًا: يا بني يا جلال استيقظ، فعندي أمرٌ هام يجب أن أكلمك فيه.

وما إن دخل جلال الغرفةَ حتى نظر حوله ورأى أباه يشعل السرير، فتخلص من ذراع عمِّه مصطفى وهو يترنَّح أرضًا، استند على الحائط وأخفض رأسه، واستكمل نومه المتقطع، دون أن يباليَ بالكلمات التي وجهها له أبوه، قال العجوز حافظ متنهدًا: يا له من غلام!

قال العم مصطفى: فعلتُ ما بوسعي، ها هو، كلِّمه إذا أردتَ.

وأمام الحالة التي وصل إليها ابنه، فكَّر العجوز حافظ لحظةً، وتساءل كيف يوقظ هذا المخلوق النائم وكأنه تحت تأثير مخدِّر، فقراره بالزواج يبدو أكثرَ من أي وقتٍ مضى، أقوى من سلطته، لقد قرَّر أن يتخذ قرارًا لا تقف أمامه رغبةُ هذا العجوز الهرِم، فتصرُّف رفيق المشينُ أثار حميَّته للسيطرة، فهو لا يريد أن يعترف بهزيمته أمام وقاحة هذا الغلام الفاسد القليل التربية، تخيَّل كيف يمكنه استمالة جلال. في الواقع فإنَّ العجوز حافظ يشكُّ في حدة رفيق واشمأزَّ من فكرة أن يكلِّمه وجهًا لوجه؛ فذكرى الحدَث الذي دار بالأمس لا يمكن نسيانُها؛ فقد اعتلَّت صحته بهذا التصرُّف، أما الأليطة فإنها لا تزال تنمو.

نظر إلى جلال يائسًا، وأطلق تنهيدةً قائلًا: يا جلال يا بني استيقظ، فأنت الكبير، وأنا أعتمد عليك كي تديرَ أمرَ هذا البيت.

وأمام هذا الانتظار، رفع جلال رأسَه كي يستيقظ؛ فقد قرصه برغوث.

– ماذا؟ ماذا تقول؟

كرَّر العجوز حافظ: أقول إنك الكبير، وعليك واجب عقوبة إخوتك.

– ماذا فعل إخوتي؟

– يا الله، ألا تعرف ماذا حدث بالأمس.

– لا، كيف تريدني أن أعرف؟

– حسنًا؟ تصرَّف أخوك رفيق كقطَّاع الطرق، وكاد أن يقتل الحاجَّة زهرة.

قال جلال: يا له من ولدٍ شجاع!

صاح العجوز حافظ: كيف؟ إذن فأنت متَّفق معه!

قال العم مصطفى: إنها جريمة.

كان العم مصطفى قد جلس فوق مقعد فوتيه، هزَّ رأسه بمهابة في أسًى، ومن وقت لآخر راح يتنهَّد بطريقته المتشنِّجة اليائسة، ثم قال: إنه أحمق.

لم يردَّ جلال؛ فهو من ناحيته لا يريد أن يتدخَّل، ولا أن يدخل في مناقشاتٍ لا طائل منها، فكَّر في أن يعودَ إلى سريره، أكمل العجوز حافظ: يا جلال يا بني، أستحلفك أن تستيقظ لحظةً وتسمعني.

ردَّ جلال: هه، ماذا تريد؟

– أريدك أن تكلِّم أخاك رفيق، قُل له على لساني إن لم يكفَّ عن أساليبه الإجرامية، وإذا لم يَتُب فسوف أعلِّمه أنني السيد هنا.

ظلَّ جلال ساكنًا للحظة أمام هذه الكلمات التي تحمل نبرةَ تهديد، يبدو أنَّ هذا تراجعٌ أمام السلطة التي يمارسها أبوه الغاضب، إنه أمرٌ بالغ العبثية، ولذا أعتقد أنَّ عليه أن يبدوَ مسالمًا، فتلك أحسن وسيلة ينهي بها هذه الحكاية.

– نعم يا أبي ... اهدأ، سوف أكلِّمه ذات يوم.

– كيف ذات يوم، أريدك أن تكلِّمه اليوم.

قال جلال متوسلًا: ألا يمكن أن تنتظر على الأقل حتى الغد؟

أطلق العجوز حافظ تنهيدةً يائسة بعد أن أدرك عدمَ جدوى هذا الحديث قائلًا: إذن كلِّمه غدًا.

في تلك الأيام كان سراج يبحث عن شيء في السندرة، لقد فكَّر مليًا طَوال الأيام الماضية، بعد أن فشِلت محاولته في الهرب من المنزل، ممَّا وضعه في مواجهة أسرته، لدرجةِ أنَّ العم مصطفى قد كلَّمه ببعض الرثاء وكأنه يتحدَّث إلى شخص مريض؛ ولذا فهو أشبه بطفل صغير ممنوع من الخروج، لا يتعامل أحدٌ بجِدية مع رغبته في العمل، هذا الموقف أهان طبيعتَه كفنان، وهو بالنسبة له مصدرٌ للمتاعب الدائمة، عليه أن يبيِّن لهم أنه يستطيع أن يذهب حتى آخرِ أفكاره.

وعليه أن يحصُل على استقلاله في تحطيم المأساة والجوع.

فهِم سراج أنه لا يستطيع مغادرةَ المنزل مع بعض النجاح إلا إذا حصل على بعض المال، وكي يفعل ذلك فقد فكَّر في بيع كتبه المدرسية القديمة، وأيضًا كتب أخوته إلى أبو زيد بائع الحرنكش، فبيعُ الكتب سوف يوفِّر له بعضَ المال، بالتأكيد لن تحقِّق مبلغًا كبيرًا، ولكن القليل الذي يحصُل عليه منها يمكنه أن يجعله يعيش أولَ مرحلة من الاستقلال إلى أن يجد عملًا سوف يشتري من أبو زيد الكتب بالتأكيد، ويمكنه بهذه الطريقة أن ينميَ

تجارته البائرة، وهي فرصةٌ لأن يصبح حانوتُه مكتبةً والتي ستصبح شيئًا جديدًا في الحي، لم يصدِّق سراج أنَّ لديه مثلَ هذه الفكرة الرائعة، فأبو زيد سيؤسِّس أولَ مكتبة في الحي، وهذا سوف يجعله محطَّ احترام من كل النبلاء.

كانت السندرة معبَّقة بالتراب، مضاءة بالنور، تتكدَّس فيها بلا ترتيب كلُّ أدوات المطبخ التي لم تَعُد صالحة، وأثاث قديم، وأشياء لم يَعُد أحدٌ يستعملها، كان سراج يعرف أن الكتب التي يبحث عنها موضوعة في حقيبة، وجدها مختبئة في ركنٍ تحت كومة من الزجاجات الفارغة والأواني المتكسِّرة نجح في أن يخرجها وأن يرفع عنها التراب الذي يغطيها وفتحها.

تحسَّر قلبه عندما تذكَّر أيام التلمذة، وذلك الزمن البعيد الذي كان يذهب فيه إلى المدرسة، هذه الكتب تمثِّل بالنسبة له ماضيًا رائعًا. في تلك المرحلة بدا المستقبل مشرقًا مليئًا بالوعود، لم يكن المنزل قد أصبح كما هو عليه الآن، حالة لا يمكن اختراقها من النوم، أمسك كتابًا وراح يتصفَّحه.

– ماذا تفعل هنا؟

سقط الكتاب من سراج، فاستدار.

– إنه أمرٌ لا يخصكِ يا فتاة؟

قالت هدى: أبحث عنك منذ ربع ساعة، الغداء جاهز.

اقتربت منه ببطء وهي سعيدةٌ بعثورها عليه، تراجع إلى الخلف؛ فهو يخشى هذه الفتاة الصغيرة أكثرَ من العالم كلِّه، فَرِقَّتُها الشديدة تمثِّل بالنسبة له كمينًا يكبُر في كل مرة بيأس شديد. هذه الفتاة بحبِّها العميق وسذاجتها المتناهية، تُضعِف دائمًا رغبته في التمرُّد، فعندما تكون معه تتحوَّل مسخًا، وتخرج من طفولتها وتصبح امرأة متخلفة مجنونة، وقالت: لماذا تبحث عن هذه الكتب، ماذا تدبِّر من جديد؟ متى ستصبح عاقلًا؟

– دعيني في حالي، أنا كبيرٌ أفعل ما يعجبني.

– لست سوى طفل.

قال سراج: حسنًا، سوف أبيِّن لكِ أنني لم أعُد طفلًا، فسوف أبيع هذه الكتب التي ترينها.

– تبيعها! لماذا؟

– كي أمتلك نقودًا يا فتاة.

ماذا ستفعل بالنقود؟

قال سراج: يمكنني أن أهرُب من هذا المنزل بالنقود، هل فهمتِ الآن؟

قالت: آه ... أيها الصبي الملعون، إذن ستعاود جنونك؟

قال سراج: قرَّرت أن أذهب، ولكن هذه المرة الأمر جادٌّ؛ فمن النقود التي ستجلبها لي هذا الكتب، سأصرف لأتمكن من الحصول على عمل.

– ثم ترحل.

اغرورقت عيناها بالدموع، اعتقدَت أنه قد تخلَّى عن المغامرات الخطرة نهائيًّا، وها هو من جديد، لا يفكر سوى في الهروب والتسكُّع في الطريق، لكن ماذا يمكنها أن تفعل؟ ولعل فرصتَها الوحيدة في أن تظل قريبة منه هي أن ترحل معه، قالت له: خذني معك.

قال سراج كم أخبرتك أنَّ هذا مستحيل!

وانسكبت دموع هدى، وبدت كأنها تستميله، ابتسمت للشاب، وراحت تقدِّم له شفتيها، ولكن سراج أدار رأسه، فدفعت هدى غطاءَ الحقيبة، ثم جلست فوقها، وأمسكت يدَ سراج وجلبته نحوها.

- اجلس قريبًا مني.

تركها سراج ترتمي فوق الحقيبة خائرةً بلا قوة، وكأنه منوَّمٌ مغناطيسيًّا لا يستطيع أبدًا أن يقاوم السِّحر الفوَّاح الذي ينطلق من هذا الجسد الشاب.

– إذن فأنت لا تريد صحبتي؟

قال سراج: لا، ماذا أفعل بكِ؟

قالت هدى بدلال: سأهتمُّ بشئونك.

– أفضِّل أن أرحل وحدي، لستُ في حاجة إلى امرأة.

– ستكون وحيدًا، وسوف أحميك.

– لماذا تخافين؟ فالعمل لا يخيفني.

قالت هدى: ماذا تعرف عنه، أنت لم تعمل قط، ومن القسوة أن تسافر وحدَك، ألا تصدِّقني؟

قال سراج: لا أعرف، على كل حالٍ من الأفضل أن تبقي في هذا المنزل.

مالت نحوه، وهمست في أذنه وهي تتوسَّل إليه: اصحبني، لا تتركني، وإلا قتلتك.

بدأ سراج يتحدَّث عن خوفه من الرحيل إلى المدينة وحدَه، فالفكرة في أن يصحب هدى معه لم تبدُ له عبثًا، في الحقيقة فإنَّ صحبته للفتاة ستكون مفيدةً له، وسيجعل وجودُها إلى جانبه الأمورَ أقلَّ صعوبةً في ظروفه الجديدة، ولذا تردَّد.

نظرت إليه وهو يفكِّر، خفق قلبها في صدرها، داعبته، ثم قبَّلته في فمه: أتصحبني؟

قال سراج: لا أعرف، ربما سأرحل معكِ، سنرى يجب أن أبيع هذه الكتب أولًا.

قالت هدى: آه، كم أحبُّك، داعبني بسرعة، فسيدي ينتظر غداءه.

وبعد الظهيرة حمل سراج الكتبَ إلى أبو زيد بائع الحرنكش الذي قرفص على عتبة الحانوت بشكله المألوف، إنه يتشمَّس، ويبدو كأنه استسلم إلى شيءٍ من الفوضى؛ فالوجه أعثُّ وناحلٌ، يصبغه فتور بيِّن، والسِّلال الموضوعة إلى جواره خاويةٌ تقريبًا.

– سلام عليكم يا أبو زيد.

ردَّ أبو زيد: سلام أيها الشاب ذو الحسب، ماذا تحمل؟

قال سراج: «إنها كتب» جئت لتوي لأعرضَ عليك مشروعًا غير مسبوق من أجل تجارتك.

نظر أبو زيد إلى الشاب في تفاؤلٍ وانتابه نهمٌ خاصٌّ، شكَّ في أعماقه في كل التغيُّرات، والمجهود الشاق الذي تحتاجه بعضُ المهن التي لا تناسب روحه السكينة، وبكل تواضعٍ سأل: أيُّ مشروع يا بني، أتمنَّى أن تكون فكرةً مناسبة.

ردَّ سراج: فكرة رائعة، أولًا اسمح لي أن أضعَ هذه الكتب، فأنا أحملها منذ خروجي من الدار.

حطَّ الكتب أرضًا، ثم وضع يديه في جيوبه، ونظر إلى أبو زيد وابتسم، ألقى أبو زيد نظرةً سريعة على الكتب، ولكنه لم يجرؤ أن يلمسها؛ فهو لم يتأكَّد بعدُ من دور هذه الكتب في المشروع الذي يريد الشاب أن يطرحه، قال: اشرح لي، فأنا أنتظر كلامك.

قال سراج: حسنًا، سوف تشتري مني هذه الكتب وتصبح مكتبيًّا.

قال أبو زيد: مكتبيًّا! أنا رجل كهل يا بني، ولا أعتقد أن هذه مهنة تناسبني.

قال سراج: إنها مهنةٌ رائعة، ستكون أول مكتبة في الحي، وستنال شرفَ المهنة.

– آه ... أتعتقد هذا؟

أصابت الدهشة أبو زيد من الاقتراح، لقد تجاوز، منذ أمدٍ طويل كلَّ هذه الآمال البسيطة، ولم يبدُ أنَّ لديه مثل هذا الطموح، فكلُّ ما يتمنَّاه هو أن يفلت من سخرية حماته السليطة اللسان، هذه المرأة الشرسة التي لا تكفُّ عن توبيخه فيما يتعلَّق بتجارته البائسة، ماذا ستقول وهي تراه واقفًا في مكتبة؟ هذا السؤال أثَّر فيه بشدة، سأل: هل أنت واثقٌ أنها لائقة؟

– ردَّ سراج: بالطبع، مَن قال غير هذا؟

– لا أعرف يا بني، ماذا تحكي هذه الكتب.

– إنها كتبٌ دراسية، كتبٌ جادة جدًّا، هل تتصوَّر يا أبو زيد أنني سأبيع لك كتبًا رديئة؟

– لا أعني هذا، معذرةً يا بني.

وسكت، ثم راح يفكِّر من جديد، ظل سراج واقفًا، غارقًا في أفكاره المجتهدة، التي ظلَّت دوافعها الحقيقية غائبةً، فهو لن يفهم سرَّ خشيةِ التاجر، وبدأ يحسُّ بالتعب، وفجأةً رأى ميمي يظهر وسط الشمس، أشعَّة الشمس، أشعة الشمس، بدا كأنه لم ينَم طيلةَ الليل، ابتسم له سراج، ولكن تساءل سراج لماذا حيَّاه ميمي ببرود شديد، وماذا حدث للكلب سمسم؟ ثم نسي الشاب المراهق وركَّز انتباهه في أبو زيد الذي بدا كأنَّ تساؤلاته الداخلية قد وصلت إلى نهاية.

في هذه اللحظة وقفت فتاةٌ صغيرة ذات جدائل طويلة وعينين مكحلتين أمام المحل، سألها أبو زيد في لا مبالاة: ماذا تريدين يا فتاة؟

– أنا من طرَف أم إحسان.

– ماذا تريد؟

قالت الفتاة: تريد خشب شيش بمليمين، وستدفع لك غدًا.

– خذي يا فتاه، واتركيني في حالي؟

وراحت الفتاه تأخذ ثم ذهبت وهي تهزُّ فخذيها النحيفتين، استدارت بعد عدة أمتار وابتسمت لسراج، تنهَّد أبو زيد: يا لها من مهنة!

سأل سراج: إذن، هل قرَّرت؟

قال أبو زيد: اتفقنا، كم تريد ثمنًا لهذه الكتب؟

قال سراج: ستعطيني ما تريد.

غمس أبو زيد يدَه في سيالة ملابسه وأخرج حافظةَ نقود قذرة، وراح يَعُد القروش، بينما غاص سراج في دوامة المغامرة.

١٦

كان الوقت منتصفَ النهار تقريبًا عندما ترك الطفل وغاص في الحارة، ورأى أولَ بيت على اليسار، خادمة تنظر من النافذة تنفض سجادة.

استعلم منها عن شيءٍ، فأشارت الخادمة بأصبعها إلى الناحية التي عليه أن يقصدها، فشكرها الطفل، ثم هرول قافزًا، إنها، على الأقل، عاشر شخص يسأله عن عنوان سراج.

وقف أمام منزل الشاب وراح ينادي وهو ينظر أعلى السور الحديدي: سراج.

لم يردَّ عليه أحد، فتراجع قليلًا ووضع يدَه في شكل قرطاس حول فمه، ونادى من جديد بكل صوته.

وبعد قليل فتح سراج نافذةَ صالة الطعام، ونظر إلى الحارة، وعلى التو عرف الصغير عنتر، الطفل الذي قابله منذ شهرين في الحقول وهو يصطاد العصافير بنبلة، يرتدي ملابسَ صيفية، بمعنى أنه شبه عارٍ، نوع من التنوُّرة مصنوع من قماش قذر يغطي حمامته، كان رأسه حليقًا تزينه قطعةُ قماش خفيف، لم يتغيَّر كثيرًا؛ فقد بدا في نظرة عينيه نفورٌ كأنهما تشهدان على معاناة شديدة، قال سراج: انتظري، أنا قادم.

وخرج بسرعة من المنزل ورأى الطفل الذي كان يتسلى بإلقاء الحجارة على نوافذ الحيوان.

– كدتَ أن تسبِّب مأساة.

قال الطفل: أنا أتسلى لا أكثر.

أحاط سراج كتفَ الطفل بذراعيه، وسارا في اتجاه الطريق، كانت الشمس تسقط أشعَّتها اللافحة في كل مكان، محدِثةً حرارةً شديدة فوق أنحاء الريف بأكمله، آوى سراج والطفل إلى ظل إحدى الأشجار، قال سراج: أنا سعيد برؤيتك، كيف حالك؟

قال الطفل: سيئ.

– ألا تصطاد العصافير؟

– لا، لقد بِعت النبلة.

– إذن، ماذا تفعل الآن؟

قال الطفل: أنا عاطل.

حمحم، جفَّف أصبعه من المخاط الذي التصق بأنفه، ثم أدار رأسه وظل صامتًا.

أصاب سراج الحزنُ لرؤية صديقه الشاب وقد بلغ أقصى حدٍّ من المتاعب، لم يعرف كيف يعبِّر له عن تعاطفه، وخلال لحظة سأل: والكوخ، هل وجدتَ الكوخ؟

قال الطفل: لا، لم أجده.

– ألم ترَ الطفل الذي سرقه؟

قال الطفل بلهجةٍ عبوسة: لقد مات.

– كيف عرفت؟

– هكذا، قلتُ لك مات.

– كيف عرفت؟

لقد جاء الشاب عنتر لرؤية سراج تدفعه حاجةٌ شديدة، فممارسته المختلفة في مجال الصعلكة لم تكن أكثرَ من بريقٍ بلا جوهر؛ فقد نزف شريانه واضطُر إلى الشحاذة، وفي سقوطه فكَّر في سراج حين أخبره أنه يريد زيارة المصنع الذي تحت التأسيس معه، لم يشكَّ في أن يحصد بضعة مليمات ثمنًا لهذا.

وخاطر بكل وضوح: ألا تريد رؤية المصنع؟

قال سراج: لا، أنا لا أفكِّر في المصنع، فهو لا يزال على نفس المنوال، لا أحدَ يفكِّر في الانتهاء منه، إنه مجرَّد أطلال.

– إذن، أليست لك رغبة في العمل؟

قال سراج: كثيرًا، قرَّرت أن أذهب للعمل في المدينة، لقد فعلتَ خيرًا بحضورك اليوم، فأنا في حاجة إليك.

كان سراج قد حدَّد هذا المساء للرحيل عن المنزل بعد العشاء؛ فمعه عشرة قروش أعطاها أبو زيد ثمنًا للكتب، وهو لا يشكُّ في نجاح مهمته، كان مجيء الطفل بمثابة فرصة غير متوقَّعة، عليه ألا يضيعها مثل المرة السابقة؛ ففي هذه الهاوية المجهولة المسمَّاة بالمدينة الكبرى فإنَّ الطفل سيكون دليلًا بالنسبة له، إنه بلا شكٍّ يملك بعض المصادر المفيدة، وسيساعده في مسيرته إلى أن يجد عملًا، سأله: هل تعرف المدينة جيدًا؟

ردَّ الطفل: لا يوجد شخص يعرف المدينةَ أفضل مني، أعرف كلَّ حاراتها وشحَّاذيها.

قال سراج: حسنًا، أنا واثق أنك يمكنك مساعدتي في إيجاد عمل.

– أيُّ نوع من العمل؟

– لا يهم.

قال الطفل: أنصحك ألا تبحث؟

سأل سراج: لماذا؟

– لأنك ستخاطر بالعثور عليه.

– ثم ماذا؟

– سيكون الأمر مرعبًا بالنسبة لك.

قال سراج: لا، لقد قرَّرت، اسمع، لديَّ الآن بعض النقود، وقرَّرت الرحيلَ هذا المساء إلى المدينة، هل يمكنك مقابلتي هناك؟

- أين هناك؟ تعرف أنها مدينةٌ كبيرة.

– حسبما تشاء، اختر المكانَ الذي يعجبك.

دعك الطفل جمجتَه وفكَّر بضعَ ثوانٍ، وقال: سأنتظرك تحت تمثال النهضة، هل تعرف أين يوجد؟

قال سراج: نعم، أتذكَّره، إنه في ميدان محطة القطار.

قال الطفل: بالضبط، سأنتظرك هناك هذا المساء في حوالي التاسعة.

قال سراج: اتفقنا، سلام عليكم.

قال الطفل: أنت لم تعطني شيئًا من أتعابي.

قال سراج: معذرة، لقد نسيت.

وأخرج قرشًا من جيبه، ثم مدَّه إلى الطفل: أتمنى أن يكفيَك هذا حتى المساء.

قال الطفل: سأرتِّب أمري إذا لم يكن أمامي ديون.

عاد سراج إلى المنزل، والقلب مليء بالفرحة والزهو؛ فهو واثقٌ أنه سوف يصبح إنسانًا جديدًا، طرازًا من رجال الغد. ابتسم وهو يفكِّر في الانتصار الذي سيحقِّقه في عالم المدحورين في المساء، وأثناء العشاء انتابه التعب، وهو يحسُّ بنفاد صبره؛ فالوجبة قد تناولها ببطء شديد، وكأن هدى تعمَّدت أن تؤخِّر لحظة الرحيل، فهي تأكل ببطء وتؤجِّل لحظةَ وضْع الأطباق وفرش المائدة، بدَت شاردة، تتحرَّك كأنها الآلة، وعلى شفتيها ارتسمت ابتسامة باهتة، ومع ذلك فعليها الرحيل معه، لقد أقنعها سراج أخيرًا، سوف تصحبه هدى

في مغامراته العجيبة، لكنها لا تبدو مرتبكةً لاقتراب الرحيل الذي يعني بالنسبة لسراج بدايةَ حياة جديدة تملؤها المخاطر غير المأمونة، وتضاعف لا مبالاتها الغيبية من هياج الشاب، ومن وقتٍ لآخر، يرمقها بنظرة استقرار، مليئة بالتوسُّل، كي يجعلها تسرع، لكن هدى بدت كأنها لم تفهم شيئًا.

رفيق هو الوحيد الذي لاحظ عصبيةَ أخيه الشاب: ماذا بك؟

ردَّ سراج: لا شيء.

– من الآن فصاعدًا، أتمنَّى أن تلتزم الهدوءَ ولا تزعجنا بحكاياتك الغبية عن الهروب والعمل، يمكننا أن نعيش سعداء الآن، وتنام حتى آخرِ أيامنا، لقد تخلَّصنا من هذا الزواج الملعون، وأنتم مدينون لي.

قال سراج: لا يهمني هذا الزواج.

– أنت ولدٌ جاحد مثلما قال أخي جلال، جحود هذا الولد يدمي قلبي، يجب أن تقتله فيمثل هذه الروح في البيت، لا يمكننا أن نعيش في هدوء.

بدا جلال كأن أحدًا قد ضربه بشدة، أمسك رأسه بين يديه واستند على المائدة، وراح يدقِّق في طبق الطعام الموضوع أمامه بعينين مفتوحتين جيدًا، فليست لديه القوة ليتحرَّك، أما رفيق فقد آلف هذا الجو من الكسل الشديد الذي يرزح فوق أخيه الأكبر، بينما يدقُّ موقفه المنتقد جرسَ الإنذار، حيث ولد لديه مشاعر منحوسة.

– ماذا بك حتى لا تأكل؟ يبدو عليك كأنك هُزمت كالعادة، هل ما زال الفأر يحرمك من النوم؟

قال جلال: ليس الفأر، بل أبوك يا عزيزي رفيق، فأنا خارج من كارثة حقيقية.

قال رفيق: ماذا فعل لك أبي؟

ردَّ جلال: لقد أيقظني طيلةَ النهار، بشرفي، إنه عملٌ إجرامي.

– متى حدث هذا؟ اليوم؟

قال جلال: لا أعرف، ربما اليوم، ربما منذ أيام، لا يهم فأنا منهك تمامًا.

قال رفيق: ماذا يريد؟ لقد نزل ليراك في غرفتك، وهذا يدهشني فيه.

قال جلال: لا، إنه ينزل ليراني في غرفتي، فهذا أقل أهميةً، ولكنه أرسل لي هذا الرجل الذي بلا قلب ... وأشار برأسه إلى العم مصطفى، الذي أجبرني أن أتبعه إلى أعلى.

ووعدني أن يحملني فوق كتفيه، لكنه بالكاد أسندني، بعد إلحاح طويل.

– يا لها من قصة! ولكنك لم تخبرني ماذا كان أبي يريد؟

– اعتقدت أنَّ الأمر يتعلَّق بجريمة قتل، سألني أن أوبِّخك، وأن أخبرك ألا تنسى أنه السيد، يبدو أنك تريد قتْلَ الحاجَّة زهرة.

– آه، أليس أكثر من هذا؟

قال جلال: نسيت أن أهنئك.

قال رفيق: لا عليك، من الآن فلن تجرؤ هذه العاهرة الضخمة على الحضور هنا، ولتذهب بزيجاتها الدساسة إلى الجحيم.

قال جلال: نحن مدانون لك بجميلٍ أبدي، يا عزيزي رفيق، أنت بطل.

قاطع العم مصطفى الذي كان طيلةَ هذا الوقت يأكل بهدوء، وكأنَّ عليه أن يظل محتفظًا بكرامته: ليستَ سوى صبيٍّ قليلِ الأدب، لقد ارتكبت خطأ كبيرًا يتعلَّق بسُمعتنا؛ فالحاجَّة زهرة ستذهب إلى كل مكان لتحكيَ ما فعلته بها، ماذا سيقول الناس؟

قال رفيق: أتبوَّل على الناس.

قال العم مصطفى: يا للعار على أسرتنا!

خشي سراج أن يطول الحوار، ولكنَّ رفيق ترك عمَّه دون ردٍّ شافٍ، بل انفجرت عنه ابتسامة ساخرة، لقد نجح دون أي شكٍّ في إبعاد هذا البؤس الذي يتمثَّل في زواج العجوز حافظ المعَد سلفًا بالكثير من الدماثة، بدا أنه يكتسي بالهدوء ويأكل بشهية كبيرة، ولكن بعد لحظة نظر إلى عمِّه، ولم يقاوم نفسَه في أن يلقيَ له بآخر نكتة، قائلًا: يا عم مصطفى، وعدتُك أن أمنح أبي لفظَ البكوية وهو يستحقها جيدًا بمثل هذه الأليطة، يمكنه بكل سهولة أن يقبل منصب «وزير».

قال العم مصطفى: كيف تجرؤ أن تتكلَّم هكذا عن أبيك؟ ثم ما حكاية هذا الأليطة، ألا تستحي؟

قال رفيق: يا عم مصطفى، لم تخبرني أنك لا تعرف أن لأبي أليطة.

– بشرفي، لم أكن أعرف، أنت ترتجل الآن قصصًا ساخرة حول أبيك.

قال جلال: بل هو الذي أخبرني.

أشار العم مصطفى: أنا لم أخبرك بشيء قط، أنتما الاثنان قليلَا التربية، وأبوكما تعِب من دناءتكما، وأبلغني أنه سوف يترككما هنا وسيعود إلى أرضه.

قال رفيق: الحمد لله، هل سيفعل هذا حقًّا؟

قال جلال: أخيرًا، سيكون النوم نصيبنا!

لقد كذِب العم مصطفى عن قصد، كي يعطيَ لنفسه مهابةً وكي يكتسب حميميةَ العجوز حافظ، لم يأخذ في حسبانه أنَّ مثل هذا الأمر لن يعجب أبناءَ أخيه، وأنه سيجذب

انتباههم، ولكن الوقت متأخر على الانسحاب، حاول أن ينقذ الموقف بأن يلتزم صمتًا غامضًا.

قال رفيق: هيا، أخبرنا بالحقيقة يا عم مصطفى.

قال العم مصطفى: لا شيء آخر يقال، أخبرتكما بكلِّ ما أعرفه، وعليكما أن تصدِّقاني.

قال رفيق: كيف يمكننا ألا نصدقك، يا عم مصطفى، وأنت عبقريُّ هذا البيت؟

قال جلال: لقد سامحتك عمَّ فعلته بي في ذلك اليوم، لكن لا تفعل ذلك ثانيةً، رآهم هنا، كانت هدى قد انتهت من المائدة، الآن سيقوم الجميع ليلحقوا بأسرتهم الموقَّرة، ما إن رآهم سراج يذهبون حتى قام بدوره وراح يغلق على نفسه حجرتَه.

وبعد ساعة تسلَّل خارج المنزل وأسرع إلى الطريق، وكانت هدى تنتظره تحت الفانوس وقد تزيَّنت تمامًا وكأنها ذاهبة إلى نزهة، وفي الضوء الخافت الذي يغلقها بدَت بكامل زيها شاحبةَ الوجه وكأنها أقرب إلى عروس المولد، كانت هادئةً ومنصاعة، أسرعت لملاقاة سراج عندما رأته، قال سراج: ماذا جرى لك، يا الله، اعتقدتُ أنَّ هذا العَشاء لن ينتهي.

قالت هدى: بذمتي، بذلتُ كلَّ ما بوسعي.

قال سراج: هيا بنا.

قالت هدى: قبِّلني أولًا.

قبَّلها سراج ثم أمسك يدَها وسارا في الطريق، في البداية تقدَّما بخطًى مسرعة، ثم شيئًا فشيئًا أبطئا الخطى وتوقَّفا لحظةً وتبادلا النظر والابتسام، كان الليل مضاءً والسماء ناصعةً مرصعَّة بالنجوم الحقيقية القريبة منهما أحسَّا أنهما يمكنهما قطفها كالثمار الناضجة، هبَّت نسمةٌ رقيقة من الريح، حاملةٌ معها رائحةَ الحشائش ومن بعيد، هبَّت روائح المدينة الكبرى العبِقة العنيفة، تنسَّم سراج بلذةٍ ريحَ الحرية التي تغذيه، أحسَّ بها على وجهه، وشعر بها على يديه.

بدَت كأنها تعود للحياة بعد خروجها من القبر، غمرته فرحةٌ كبرى، واستدار نحو الفتاة وسألها: هل أنت سعيدة؟

قالت هدى: نعم، سعيدة لأنني معك.

قال: أخيرًا يمكنني أن أعمل.

واستغرق في التفكير في المجهود الذي سيبذله، سيساهم في إثراء البشرية، وسيشارك في القوى التي تحرِّك العالم، ولن تكون حياته عقيمة، سيكون وجودُه مفيدًا مليئًا بالمفاجآت؛ لذا فهو يتعجَّل الوصول إلى المدينة، قالت هدى: حاول أن تجد عملًا أقلَّ إرهاقًا.

١٦

– لماذا يا تافهة؟ على العكس سأبحث عن أشقِّ الأعمال.

– قد تسقط مريضًا.

– لن أسقط مريضًا، مَن تتصوَّرينني؟ أنا قادر على ممارسة أي عمل.

فكَّرت هدى، ثم قالت: هل يمكنك أن تعمل حوذيًا؟

قال سراج: لا، ليس عملًا جادًّا.

قالت هدى: إنه بالغ الجدية، وهو في نفس الوقت مسلٍّ جدًّا، فلن تفعل شيئًا طيلةَ النهار سوى أن تغنيَ في عربتك، ويمكنك أن تأخذني في نزهة.

قال سراج: اسكتي، لا أريد، إنه ليس عملًا جادًّا، هل تسمِّين هذا عملًا، أن أجلس طيلةَ النهار أقود عربة حنطور؟ أريد عملًا حقيقيًّا، هل تفهمين؟

قالت هدى: يا خسارة، كان يمكنك أن تأخذني في نزهة، أحبُّ كثيرًا أن أركب عربة.

– فيمَ تفكِّرين يا فتاة؟ هيَّا كوني جادة، لسنا هنا بدافع التسلية.

قالت هدى: خسارة، افعل ما تريد.

وبلغا آخرَ العَمار، فوجدا نفسيهما على الطريق يحوطهما الريف الواسع والضوضاء الصاخبة القادمة من بعيد، نظر سراج إلى الطريق أمامه، أحسَّ نفسه ضائعًا مع أضواء الفوانيس الخافتة، أبطأ الخطى مترددًا أمام ما يبذله من مجهود شديد، تلاشى حماسه فجأةً بدأ يحسُّ بالندم داخل أعماق قلبه، فلا شكَّ أنَّ وجوده مرتبط بدفء البيت الذي تركه لتوه كي يجرِّب المغامرة، ولا يمكنه أن ينساه بسهولة، إنه عروةٌ وثقى بالنسبة له، يصنع الخمول والنوم الذي يعجز عنه الوصفُ فهو متعلِّق بمصيرٍ يودُّ خيانته، كم هو مجنون حين يعتقد أنه مختلف عن أقرانه، وأن يكرِّس نفسَه لمجهود عضلي خارق، فكل هذا ليس سوى عين الخطر، راح يفكِّر في خوف من المكائد الشريرة التي تنتظره في المدينة الكبرى.

في البداية فكَّر في المصانع؛ حيث عليه أن يعمل من الرابعة صباحًا، ارتعد سراج من هذا الاكتشاف، ثم هناك أيضًا الترام الذي يمشي في طريقٍ مجنون دون مراعاةٍ للناس الذين يدهسهم، كما أنَّ هناك الحكومة، هذه الحكومة سوف تقبض عليه وترمي به في السجن، مما أثار قلقه أكثرَ، الحكومة كما قال أبوه تقبض على المتمردين، ولكن مَن هو المتمرِّد؟ هل رغبتُه في البحث عن عملٍ وأن يختلط بالبشر المجتهدين تُعَد من أعمال التمرُّد؟ لم يفهم سراج لماذا تعتبر الحكومة أنَّ حبَّه للحياة العملية حالةٌ من التمرُّد ضد كل القوانين الموضوعة، بدا له هذا الأمر غريبًا.

وأصابته فكرةُ العساكر ببعض الغثيان، وأحسَّ فجأةً بخيبة أمل، ودار رأسه فتوقَّف وتأمَّل الفتاة للحظة، ثم قال: إنه لا يزال بعيدًا، ألا تتوقَّف لحظة؟

قالت هدى: حسنًا، هل تعِبت؟

ردَّ سراج: قليلًا، لنجلس لحظة، لحظة واحدة فقط.

وجلسا على طرَف الطريق وأغلق سراج عينيه، فلا توجد أيُّ سيارة تمرُّ على الطريق، والصمت يسود المكان، لا يُسمع سوى خرير السواقي الذي لا يتوقَّف، تسكب مياهها الموحلة عبْر الحقول الممتدة في الليل، سأل سراج: هل تعتقدين أننا ابتعدنا كثيرًا عن البيت؟

قالت هدى: لا، هل تريد العودة؟

قال سراج: لا أعرف، أريد أولًا أن أنام قليلًا.

قالت هدى: كما تريد؟

وتثاءب سراج طويلًا، نظرت إليه هدى وراحت تتثاءب مثله، ثم ضمَّ كلٌّ منهما الآخرَ إليه، وناما متناسَين العناءَ الذي يبذله الناس تحت تلك النجوم البطيئة الكسولة.

